مشروع إعداد نسخة إلكترونية
لحوليةكلية اللغة العربية بالمنوفية
إعداد وتنفيذ
أ.د/ يوسف محمد فتحي عبد الوهاب
أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد في الكلية

خصائص البيان القرآني بالخوف والخشية
(دراسة بلاغية)

الدكتور
السيد محمد السيد سلام
(الأستاذ المساعد بالقسم)

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

حوليةكلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد السابع عشر (المجلد الثاني)، مطبعة الحرمين ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

أحمد الله الذى بيده مقاليد الأمور، يخشاه من يعرف عظمته، «إنما يخشى الله من عباده العلماء»، ويخافه من لا يأمن مكره، ولا ينكر قدراته، وأصلى وأسلم على أخشى الناس وأتقاهم، وعلى آله وأصحابه، ومن اقتدى بهديه وهداهم إلى يوم الدين.

وبعد:

فبناء كل كلمة له غرض ودلالة تصوره حروفها، ويحققه وقعها وجرسها واختلاف التكوين يؤدى إلى اختلاف البيان، وائتلاف الكلمة مع سياقها، واتساقها مع جيرانها يكون من هذا القبيل، وهو أنها تؤدى ما لا يؤديه غيرها.

وهاتان كلمتان (الخشية والخوف) قال بعض العلماء: «لا يكاد اللغوى يفرق بينهما، ولا شك أن الخشية أعلى من الخوف، وهى أشد الخوف»(١).

ومن ثم أردت بهذه الدراسة أن أجلى ما أستطيعه من خصوصيات الكلمة بين أخواتها على الرغم من تقارب المعنى بينها وبين ما هو فى ظاهره شبيه بها.

فإذا تأملنا الفرق بين بيان الحق سبحانه وتعالى فى قوله تعالى: «فلا تخشوهم واخشون»، وقوله جل شأنه: «فلا تخافوهم وخافون»(٢)

---

(١) البرهان للزركشى ٤ / ٧٨ .

(٢) درس سياقها فى بيان الفروق.

وجدنا لفتا بارعا فى سياق كل واحدة منهما يؤذن بأن الخوف لا يقوم مقام الخشية، والخشية لا تقوم مقام الخوف.

جاء النهى عن الخشية فى الأولى تحقيراً لشأن قوم تعاظموا فى أنفسهم، واغتر بعض الناس بعظمتهم، والأمر بها «واخشون» إعلاء لشأن من يستحق التعظيم دون سواه.

والخشية مقامها التعظيم؛ لأنها خوف يشوبه تعظيم، والنهى عن الخوف فى الثانية؛ لأنها تحكى شأن قوم تصاغروا للشيطان وصاروا أولياءه، فلا تخافوا وقعهم فإنهم ضعاف، ولا تتخلوا عن رسولى فى أموركم. . . ، فالخوف يأتى فى أمر منتظر أو مستقبل، وهذا غالب شأنه.

ومِثل هذا هو ما تحاول الدراسة تبيانه، فتوضح إجمالا كلام العلماء فى معانى الخوف، وكلامهم فى معانى الخشية ليكون مرآة للناظر فيها، ثم تدرس بشىء من الإيجاز الفروق بينهما، مع النظر فى بعض الشواهد، ثم تنظر فيما جاء معه التعبيران، كلفظ الرب واسم الجلالة، ولفظ الإنذار والرهق واليوم، ثم دلالة اجتماعهما فى آية واحدة، ثم خصائص التعبير فيما انفرد به أحدهما دون الآخر.

فقد جاءت مع الخشية أمور لم تأت مع الخوف كالإشفاق والإملاق والإنفاق والقشعريرة والعنت وكساد التجارة والتفرقة.

وكذلك جاء الخوف فى أمور لم تأت معها الخشية كالمقام والوعيد، والعَيلة والنشوز والشقاق والجنف، والإثم والظلم والهضم، والتكذيب والقتل وعذاب يوم القيامة بأوصافه، أليم - عظيم - محيط - كبير . . . إلخ.

وغير ذلك مما تجليه الدراسة محاولة كشف خصائصه واختلاف عطاء كل كلمة بين سياقها ومقامها.

والله من وراء القصد

«ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين».

معانى الخوف والخشية فى بيان العلماء

جاء كل من الخوف والخشية فى بيان العلماء لمعان متعددة نذكرها أولاً بصورة مجملة مع بعض الشواهد لتكون مقدمة للتفصيل الذى نحاول فيه تجلية هذه المعانى خلال سياقها ونصل من خلال ذلك إلى بيان الفرق بين التعبيرين ودلالة كل تعبير فى مقامه، ثم نصل من ذلك أيضا إلى دلالة التعبيرين فى السياق الواحد ودلالة انفراد كل منهما مع بعض الأمور دون الآخر، مما يؤكد بدهية مسلمة، وهى أن كل تعبير يقوم بما لا يقوم به سواه، ولا يصلح وضع غيره مكانه.

أولاً: معانى الخوف:

١ - جاء الخوف بمعنى (العلم) أو (التوقع) أو (الظن)، كقوله تعالى: «فمن خاف من موص جنفا» (البقرة ١٨٢).

قال الزمخشرى: «فمن خاف: فمن توقع وعلم، وهذا فى كلامهم شائع، يقولون: أخاف أن ترسل السماء يريدون التوقع والظن الغالب الجارى مجرى العلم»(١).

وقال الرازى: «فمن خاف أى فمن علم، والخوف والخشية يستعملان بمعنى العلم، وذلك لأن الخوف عبارة عن حالة مخصوصة متولدة من ظن مخصوص، وبين العلم وبين الظن مشابهة فى أمور كثيرة، فلهذا صح إطلاق اسم كل واحد منهما على الآخر(٢).

---

(١) الكشاف ١ / ٣٣٤ .

(٢) تفسيره ٥ / ٧٠ .

وقال البقاعى: «فمن خاف» أى علم وتوقع وظن، أطلق عليه لأنه من أسبابه، وكذلك: «وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا» أى علمت[1].

وقوله تعالى: «واللاتى تخافون نشوزهن» أى تظنون، «وإن خفتم شقاق بينهما» أى علمتم[2].

٢ ـ وكذلك جاء الخوف بمعنى الفزع فى المستقبل. قال ابن فارس: «خوف» الخاء والواو والفاء أصل واحد يدل على الذعر والفزع[3].

وقال الألوسى فى بيان قوله تعالى: «فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (البقرة ٣٨)، الخوف: الفزع فى المستقبل[4].

وذكر الحرالى فى هذه الآية: «الخوف: اضطراب النفس من توقع فعل ضار»[5].

٣ ـ ويأتى الخوف بمعنى القتال، قال ابن منظور: «الخوف القتال وبه فسر اللحيانى قوله تعالى: «ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع...» (البقرة ١٥٥)، وبه فسر قوله تعالى أيضا: «فإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به» (النساء ٨٣)[6].

---

(١) نظم الدرر ١ / ٣٣٦ .
(٢) الفتوحات الإلهية ١ / ٣٨٠ .
(٣) معجم مقاييس اللغة (خوف) ٢ / ٢٣٠ .
(٤) ينظر: روح المعانى ١ / ٢٢٩ .
(٥) نظم الدرر ١ / ١٠٩ .
(٦) لسان العرب (خوف).

٤ ـ الخوف بمعنى الحذر: قال تعالى فى شأن الملائكة: «ويخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون» (النحل ٥٠)، أى يحذرون المعاصى خوفا من العقاب[١].

٥ ـ الإهابة والوقير: ذكر الألوسى فى قوله تعالى: «قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب...» (المائدة ٢٣) أن معنى (يخافون): يهابون ويوقرون ويرجع إليهم لفضلهم وخيرهم[٢].

ثانيا: معانى الخشية:

فى لسان العرب: «الخشية: الخوف وخشى الرجل يخشى خشية: أى خاف، وقوله عز وجل: «فخشينا» أى فعلمنا.

وقال الزجاج: «فخشينا» من كلام الخضر معناه: كرهنا ولا يجوز أن يكون من كلام الله بدليل قوله تعالى: «فأردنا أن يبدلهما ربهما...».

وقد يجوز أن يكون «فخشينا» عن الله عز وجل؛ لأن الخشية من الله معناها الكراهة، ومن الآدميين: الخوف، ويكون قوله: «فأردنا» بمعنى: أراد الله.

وفى حديث ابن عمر قال له ابن عباس: «لقد أكثرت من الدعاء بالموت حتى خشيت أن يكون ذلك أسهل لك عند نزوله» خشيت هنا بمعنى: رجوت[٣].

---

(١) ينظر الكشاف ٧ / ١٤ .

(٢) ينظر تفسيره ٦ / ١٠٧ .

(٣) لسان العرب (خشى).

وذكر ابن قتيبة أن الخشية بمعنى العلم، واستدل على ذلك بما استدل به ابن منظور «فخشينا أن يرهقهما» أى علمنا[1].

نخلص من ذلك إلى أن الخشية بمعنى:

(١) العلم: وتلتقى مع الخوف فى هذا المعنى، كما أنها تأتى بمعنى الخوف، قال تعالى: «فلا تخشوهم واخشونى» (البقرة ١٥٠)، أى فلا تخافون مطاعنهم فى قبلكم فإنهم لا يضرونكم»، «واخشونى» فلا تخالفوا أمرى وما رأيته مصلحة لكم»[2].

نلحظ هنا مجىء الخشية بمعنى العلم، وبمعنى الخوف وبمعنى عدم مخالفة أوامر الله، ويكثر مجيئها بمعنى الخوف ولكن لابد من وجود فروق بينهما ستتجلى فى موطنها من الدراسة إن شاء الله.

(٢) كذلك نلحظ التقاء الخوف والشفقة فى معنى الأمر بالخشية وذلك فى بيان الزمخشرى لقوله تعالى: «وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليها» (النساء ٩).

قال: (لو) مع ما فى حيزه صلة للذين، والمراد بهم الأوصياء أمروا بأن يخشوا الله فيخافوا على من فى حجورهم من اليتامى ويشفقوا عليهم خوفهم على ذريتهم لو تركوهم ضعافا، وشفقتهم عليهم وأن يقدروا ذلك فى أنفسهم ويصوروه حتى لا يجسروا على خلاف الشفقة والرحمة»[3].

---

(١) تأويل مشكل القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، ص١٩٠ .

(٢) الكشاف ١ / ٣٢٣ .

(٣) الكشاف ١ / ٥٠٣ .

(٣) وكذلك الأمر بالخشية بمعنى الإخلاص فيها، ذكره الزمخشرى أيضا فى بيان الأمر فى قوله تعالى: «اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون» (المائدة ٣) قال: «واخشون»: وأخلصوا لى الخشية[١].

(٤) تستعمل الخشية بمعنى الخوف والتقوى فى باب الدين، قال تعالى: «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله» (التوبة ١٨).

قال الرازى: المراد من هذه الخشية: الخوف والتقوى فى باب الدين وألا يختار على رضا الله رضا غيره»[٢].

(٥) واستعملها بعضهم بمعنى العذاب فى قوله تعالى: «إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون» (المؤمنون ٥٧).

ذكر الرازى أن منهم من حمل الخشية على العذاب، والمعنى: (الذين هم من عذاب ربهم مشفقون)، وهو قول الكلبى ومجاهد[٣].

وفى الآية وجوه أخرى سنوضحها فى بيان اجتماع الخشية والإشفاق إن شاء الله.

---

(١) ينظر السابق ١ / ٥٩٣ .

(٢) ينظر تفسيره ١٦ / ١١ .

(٣) ينظر تفسيره ٢٣ / ١٠٧ .

الفرق بين الخوف والخشية

يقول ابن فارس: «الخاء والواو والفاء أصل واحد يدل على الذعر والفزع».

الخاء والشين والحرف المعتل يدل على خوف وذعر، ثم يحمل عليه المجاز، فالخشية: الخوف، ورجل خشيان، وخاشانى فلان فخشيته: أى كنت أشد خشية منه.

والمجاز قولهم: خشيت بمعنى علمت، قال:

ولقد خشيت بأن من تبع الهدى　　سكن الجنان مع النبى محمد

أى علمت، ويقال: هذا المكان أخشى من ذلك أى أشد خوفا(١).

= ويفهم منه أن الخشية أشد الخوف، وهذا من الفروق بينهما.

ويحقق هذا المعنى سر التعبير بها دون الخوف فى قوله تعالى: «ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشونى ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون» (البقرة ١٥٠).

فإذا تأملنا السياق الذى ورد فيه هذا التعبير بالنهى «فلا تخشوهم» والأمر «واخشونى» رأينا المعترضين على أمر القبلة والممارين فيه سفهاء الناس كما أبان عنهم كتاب الله - عز وجل - «سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها» ولرأينا أن الآيات بعد ذلك تحكى عنادهم «ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك...»

---

(١) ينظر مقاييس اللغة (خوف وخشى) ولسان العرب فى المادتين أيضا.

ومعرفتهم للحق وكتابه «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم» ومن جانب آخر تحكى منزلة هذه الأمة عند الله «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس» ومنزلة الرسول بينهم «ويكون الرسول عليكم شهيدا».

ومن كان هذا شأنهم جدير بهم أن تتوجه خشيتهم إلى الله، وتنقطع له دون أحد سواه، ولا تنصرف إلى هؤلاء الظالمين أبدا.

وجاء التعبير بلفظ الخشية هنا ليناسب جبروت الظالمين وقوة عنادهم، وقد وقع هذا العناد وحدث.

ومن ثم قال بعض العلماء: «ذكر الخشية هنا ولم يذكر الخوف؛ لأن الخشية حذر من أمر قد وقع، والخوف: حذر من أمر لم يقع»(١) وهذا فرق ثان بينهما.

ولما كانت الخشية أشد الخوف كما سبق نهى عن خشية الظالمين هنا تحقيراً لشأنهم وأمر فى الحال بخشيته هو تعظيما لشأنه وبيان أن الأمر كله بيده: «قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم».

فإن كان فيها معنى الخوف كما قال أبو حيان: «والذى تدل عليه اللغة والاستعمال أن الخشية والخوف مترادفان»، قال تعالى«فلا تخافوهم وخافون» كما قال هنا: «فلا تخشوهم واخشونى»(٢).

---

(١) ينظر: البحر المحيط ١ / ٤٤١ .

(٢) المصدر السابق.

= إن كان فيها ذلك إلا أنه خوف بتعظيم المخوف منه، كما أنها تطلق عل مطلق الخوف، أما الخوف فهو ظن وقوع المضرة من شيء[1] وهذا فرق ثالث.

إذن: هناك فرق بينهما، وليس الأمر على ما قال أبو حيان.

وبالتأمل فى سياق التعبيرين: «فلا تخشوهم واخشونى» و«فلا تخافوهم وخافون» نجد فى الأول مناسبة التعبير لشدة هؤلاء الظالمين فى أعين الناس، وكان الخطاب لمن صفا إيمانهم، وخلصت نياتهم لله، أراد الحق سبحانه أن يطمئن قلوبهم ويثبت نفوسهم بخشيته وحده.

أما قوله تعالى: «إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين» (آل عمران ١٧٥).

فجاءت فى سياق بيان شأن الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، والذين ازداد إيمانهم لما علموا أن الناس قد جمعوا لهم: «الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل».

أخبرهم الحق بموقف الشيطان مع أوليائه، وهم أى الأولياء ضعاف النفوس لا عظمة ولا شأن لهم.

فالموقف لا يستدعى التعبير بالخشية لأن سلاح المؤمنين أقوى من سلاح الذين استهواهم الشيطان فكانوا أولياءه لذلك قال: «فلا تخافوهم» لأن وليهم الشيطان وهذا يدل على ضعفهم و«خافون»: فلا تتبعوا غيرى.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ١٣ / ١٢٨ .

وإنما عبر بالخوف مع عظمة الله سبحانه لمناسبة الموقف وهو أنه تثبيت بأمر مستقبل، وهذا شأن التعبير بالخوف كما سبق فى بيان معانيه.

= والخشية تدل على عظمة المخشى (ولا عظمة للشيطان ولا لأوليائه) وإن كان الخاشى قويا، أما الخوف فيدل على الضعف وإن كان المخوف منه أمراً يسيراً، وكأنه أراد أن يجعل ضعفهم أمام الله، لا أمام أولياء الشيطان.

= ويدل على ذلك أن الخاء والشين والياء فى تقاليبها تدل على العظمة، والخاء والواو والفاء فى تقاليبها تدل على الضعف.

وانظر إلى الخوف لما فيه من ضعف القوة قال تعالى: «ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب» (الرعد ٢١).

فإن الخوف من الله لعظمته يخشاه كل أحد كيف كانت حالته، وسوء الحساب ربما لا يخافه من كان عالما بالحساب وحاسب نفسه قبل أن يحاسب»[١].

ويقول أبو هلال العسكرى فى الفرق بين الخوف والخشية: «والخوف يتعلق بالمكروه وبترك المكروه، تقول: خفت زيدا كما قال تعالى: «يخافون ربهم من فوقهم...» والخشية تتعلق بترك المكروه، ولا يسمى الخوف من نفس المكروه خشية، ولهذا قال: «ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب»، فإن قيل: أليس قد قال: «إنى خشيت أن تقول فرقت بينى بنى إسرائيل» قلنا: إنه خشى القول المؤدى إلى الفرقة والمؤدى إلى الشىء بمنزلة من يفعله...[٢] وهذا من الفروق بينهما أيضا.

---

(١) ينظر البرهان للزركشى ٤ / ٧٨ .　　(٢) الفروق فى اللغة ٢٣٦ .

ومن هنا يتبين أن الحق سبحانه وتعالى فى كثير من المواضع ذكر لفظ الخشية، حيث كان الخوف من عظمة المخشى، قال تعالى: «إنما يخشى الله من عباده العلماء» وقال تعالى: «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله» فإن الجبل ليس فيه ضعف يكون الخوف من ضعفه، وإنما الله عظيم يخشاه كل قوى «وهم من خشيته مشفقون» مع أن الملائكة أقوياء.

وقال تعالى: «وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه» أى تخافهم إعظاما لهم إذ لا ضعف فيك بالنسبة إيهم.

وقال تعالى: «ولا تخف ولا تحزن» أى لا تخف ضعافا فإنهم لا عظمة لهم، وقال سبحانه: «يخافون يوما» حيث كانت عظمة اليوم بالنسبة إلى عظمة الله ضعيفة، وقال هارون: «إنى خشيت» لعظمة موسى فى عين هارون لا لضعف فيه»(١).

هكذا نجد أن الخشية مستعملة لخوف بسبب عظمة المخشى، والخوف مستعمل لخشية من ضعف الخائف، فقوله تعالى فى آية البقرة: «فلا تخشوهم واخشونى» فيه نهى عن تعظيم من لا يستحق التعظيم، وبيان عظمة الله تجاه كل عظيم فى أعين الناس، أو من يرى فى نفسه ذلك كهؤلاء الظالمين، ومن ثم كان التعبير بلفظ الخشية.

أما آية آل عمران: «فلا تخافوهم وخافون» فكان القوم أصابهم القرح قبل ذلك، وقد يكون خوفهم من أولياء الشيطان الذين انقادوا له مترسبا فى نفوسهم فترك فيها شيئا من الوهن، لذلك ختمت الآية بقوله سبحانه: «إن كنتم مؤمنين» فكان التعبير بالخوف مناسب لمقامه.

---

(١) ينظر تفسير الفخر الرازى ٢٨ / ١٧٧ .

كما أن الخشية فيها معنى الهيبة والامتثال، ذلك الذى يدعو إلى تقوى القلوب وشدة تعلقها بالله، ولا يكون ذلك إلا عن معرفة به، قال تعالى: «إنما يخشى الله من عباده العلماء».

قال الراغب: «الخشية: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خص العلماء بها، والخوف توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة[1].

وروى السلمى عن ابن عطاء: «الخشية أتم من الخوف؛ لأنها صفة العلماء فى قوله تعالى: «إنما يخشى الله من عباده العلماء» أى العلماء به.

وعن الواسطى: «أوائل العلم الخشية ثم الإجلال، ثم التعظيم، ثم الهيبة، ثم الفناء[2].

وذكر الفخر الرازى فى بيان قوله تعالى: «سيذكر من يخشى» (الأعلى ١٠) أن الذى يخشى هو الذى يكون عارفًا بالله وقدرته وكمال علمه، وهو الذى يقطع بصحة المعاد، وأن الخشية حاصلة للعالمين، وللمتوقفين غير المعاندين»[3].

فإذا كانت الخشية غالبا عن علم فالخوف غالبا يكون عن توقع وظن، والعلم فيه لا يرقى إلى درجة اليقين.

---

(١) الفتوحات (خشى وخوف).

(٢) الفتوحات الإلهية ٤ / ٨٤ .

(٣) ينظر تفسيره ٣١ / ١٤٥ .

الكلمات التى اشترك فيها التعبيران (الخوف والخشية)

لا ريب أن لكل كلمة فى موطنها دلالة، وقد يستعمل الاسم الواحد مع الخوف تارة ومع الخشية أخرى، وتختلف دلالة كل ومؤداه.

نبين ذلك من خلال دراسة الشواهد ومحاولة استخراج مقاصدها.

فقد جاء التعبير بالخوف والخشية مع الرب، واسم الجلالة (الله)، ولفظ الإنذار والرهق، واليوم.

وقد يجتمعان فى آية واحدة ويتآزران فى بيان المراد، وبيان ذلك كما يلى:

لفظ (الرب) ودلالته مع الخوف والخشية:

جاء التعبير به مع الخوف فى قوله تعالى: «ولمن خاف مقام ربه جنتان» وقوله: «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى» وقوله: «يخافون ربهم من فوقهم».

ومع الخشية فى قوله تعالى: «الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون»، وقوله تعالى: «رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه».

ولفظ (الرب) مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة، واسم الجلالة مدلوله الهيبة والعظمة.

ومع ذلك ذكرت مع الأول (الخشية) وهى أشد الخوف (والخوف) الدال على ضعف الخائف، ومع الثانى كذلك، ونترك المجال للنظر فى سياق الآيات ليفصح لنا شىء من خصائص التعبير:

قال تعالى: «ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين، الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون» (الأنبياء ٤٨ ـ ٤٩).

جاء التعبير هنا بالخشية مع لفظ الرب، وبالخوف فى قوله تعالى: «ولله يسجد ما فى السماوات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون» (النحل ٤٩، ٥٠).

الآية الأولى تتحدث عن المتقين، والثانية تتحدث عن الملائكة، وذكر لفظ الخشية مع المتقين لبيان خوفهم من الله وتعظيمهم إياه، وسبق أن الخشية: خوف يشوبه تعظيم وهى دليل ضعف الخاشى، ولفظ (التقوى) فيه معنى الخوف؛ لأن المراد به فى الشرع كما ذكره الراغب: «حفظ النفس عما يؤثم، وذلك بترك المحظور» وقال أيضا: «والتقوى جعل النفس فى وقاية مما يخاف»(١).

ولذلك تستعمل مع الخشية كما فى هذه الآية، وكما فى قوله تعالى: «ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه...» وقوله تعالى: «ياأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما...».

ومع الخوف كما فى قوله تعالى: «فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون».

والأتقياء كالعلماء أشد الناس خوفا من الله وتعظيما له لما فيهم من شدة الحرص ودوام العمل فى الطاعات فناسب وصفهم بذلك: «الذين

---

(١) المفردات (وقى).

يخشون ربهم» وعبر معهم بلفظ الرب بيـانا لإقرارهم بإحسانه واعترافهم بفضله ومنتـه، ثم خصصهم بقوله تعـالى: «وهم من الساعة مشـفقون» لبيان ما فيهم من رقة القلوب وانكسارها لله وحده.

قـال أبو هلال: «الشـفـقـة: ضرب من الرقـة وضـعف القلب ينال الإنسـان»(١) فهم يخشون ربهم لعظمته، والسـياق يبين خضوعهم وشدة طاعتهم لأوامره.

وإذا كان هذا يتحقق فى الملائكة أو يزيد، فـما بال شأنهم وقد ذكر معهم لفظ الخوف، «يخافـون ربهم» مع أنهم أقوى من البشر فى تقربهم إلى الله وطاعتهم إياه.. ولكن الله سبحانه أراد أن يذكر صفتهم بين يديه فقال: «يخافون ربهم من فوقـهم ويفعلون ما يؤمرون» فبين أنهم عند الله ضعـفاء، ولما ذكـر المؤمنين من الناس وهم ضـعفـاء لا حاجة إلى بـيان ضعفهم ذكر ما يدل على عظمته تعالى فقال: «يخشون ربهم».

ولما ذكـر ضعف الملائكة بالنسـبة إلى قـوته تعالى قـال: «ربهم من فوقهم»، والمراد فوقية العظمة(٢).

وقال البقـاعى: «من فوقهم» إشارة إلى علو الخوف عليـهم وغلبته لهم، أو حال كون ربهم مع إحسانه إليـهم العلو والجبروت، فهو المخوف المرهوب(٣).

وهكذا ناسب ذكـر الخشيـة مع المتقين لما فـيهم من شـدة الامتـثال والطاعة لله.

---

(١) الفروق فى اللغة ٢٣٦ .

(٢) ينظر البرهان للزركشى ٤ / ٧٨ .

(٣) نظم الدرر ٤ / ٢٧٥ .

وناسب ذكر الخوف مع الملائكة مع أنهم أقوياء لبيان مقامهم بين يدى ربهم، ولتوضيح شأنهم عند الله مع أنهم «لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون».

قوله: «من فوقهم» فى الآية التى ذكر فيها الخوف، يناسبه فى الأولى التى ذكر فيها الخشية قوله: «بالغيب» مع المتقين لبيان ما فى الموقفين من الإجلال والهيبة التى تزداد بها خشية المتقين عندما يعلمون شأن الملائكة مع ربهم وبيان ضعفهم بالنسبة لعظمته.

وفى قوله تعالى: «ولمن خاف مقام ربه جنتان» (الرحمن ٤٦)، وقوله تعالى: «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى» (النازعات ٤٠)، وقوله تعالى: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه، ذلك لمن خشى ربه» (البينة ٧، ٨).

نلحظ أنه مع خوف الرب ذكر المقام، ومع خشيته اكتفى بضمير العظمة مع ذكر الرب، وذلك لأن الخشية تدل على التعظيم أكثر مما يدل عليه الخوف.

ومن ثم قال سبحانه: «فذكر بالقرآن من يخاف وعيد» (ق ٤٥)، فقال «يخاف» عندما جعل المخوف عذابه ووعيده، وذكر الخشية عندما جعل المخوف نفسه العظيم»[1].

(١) ينظر تفسيره الرازى ٢٨ / ١٩٢ .

فلما قال سبحانه: «رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه» أشار إلى أن الخوف من الله كائن فى هؤلاء، وليس هذا هو المراد بيانه، بل المراد أن خوفهم هذا ليس من وعيد الله وعذابه، إنما هو لأجل تعظيمه.

ولما كان الجزاء من جنس العمل كانت لهم عند الله منزلة عظيمة تتجلى فى هذه العندية «جزاؤهم عند ربهم».

وهى تشير إلى أن الجزاء مدخر لهم فى المستقبل مضمون الحصول مع ما فى لفظ (عند) من الإشارة إلى الكرامة، وما فى وصف (ربهم) من الإيماء إلى العناية بهم وتعظيم شأنهم.

ففى «ذكر الرب دون اسم الجلالة إيماء إلى نسبة لهم عند الله، وهى نسبة المربوبية فهى كنسبة الولاء»(١).

فهؤلاء آمنوا وعملوا الصالحات واطمأنت قلوبهم بذكر الله ليس فيها ذعر ولا رعب فلم تتوقع مكروها، ولم تنشغل به، بل انشغلت بتعظيم الله وإجلاله، والتفكر فى عظيم ضعفهم، والتأمل فيه، وهذا هو مقام الخشية، الخوف فيها سببه التعظيم؛ لأنه يكون غالبا عن علم وبينة كما سبق، لذلك لما ذكر الخوف ذكر المقام: «ولمن خاف مقام ربه جنتان»، «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى».

قال أبو حيان: «أى مقام بين يدى ربه يوم القيامة للجزاء، وفى إضافة المقام إلى الرب تفخيم للمقام وتهويل عظيم واقع من النفوس موقعا عظيما»(٢).

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور جزء عم ٣٢٤ . (٢) البحر المحيط ٨ / ٤٢٣ .

فالخوف فى الآيتين من الوقوف بين يدى الله، ولا ريب أن هذا خوف من الله، ولكن منزلة هؤلاء أدنى من منزلة الذين يخشون ربهم؛ لأن اتجاه هؤلاء إلى وعيد الله ومقامهم بين يديه وهذا عند الخاشين لله مرحلة متقدمة وكأنهم انتهوا منها، واستقرت فى نفوسهم، وكان هدفهم بعد ذلك إجلال الله وتعظيمه.

وسورة الرحمن تهدف إلى التذكير بنعم الله، وأنه لا ينبغى التكذيب بها، والخطاب فيها للثقلين، وفيها ترهيب وترغيب، فلما ذكرت شأن المجرمين فى قوله تعالى: «يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام، فبأى آلاء ربكما تكذبان، هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون، يطوفون بينها وبين حميم آن»، أى يؤخذ بهم ويتمكن منهم، ويقال لهم توبيخا وتقريعا: : هذه جهنم. ويقابل ذلك فى الجانب الآخر: «ولمن خاف مقام ربه جنتان».

ثم تعددت الآيات بعد ذلك فى وصفهما: «ذواتا أفنان»، «فيهما عينان تجريان»، «فيهما من كل فاكهة زوجان» .. كل هذا للخائف من الوقوف بين يدى الله أو الذى يراقب الله، والذى يعلم أن الله قائم على كل نفس بما كسبت، وإذا كان ذلك كذلك فذكر الخوف هنا أنسب، حيث كان من المقام، وآية البينة يناسبها ذكر الخشية؛ لأن مقامها مقام إجلال وتعظيم بدليل ذكر العندية «عند ربهم»، وتحقق الرضا «رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه» (البينة).

فالتفضل هنا فيه إجلال يناسبه ذكر الخشية، والتفضل فى آية الرحمن فيه إكرام يناسبه ذكر الخوف.

قال البقاعى: والخوف مع ذكـر وصف الإكرام أبلغ من ذكر الخوف عند ذكر أوصاف الجلال»[1].

وكذلك الشأن فى آيـة النازعات: «فأما من طغى وآثر الحـياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى، وأما من خـاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى».

فلما ذكـر هنا الطاغى ناسب أن يذكر الخائف، كـما أنَّ نهى النفس عن الهوى لا يناسبه إلا ذكر الخوف؛ لأنه هو الذى يدفع إليه ويعين عليه.

قال البـقاعى: «ولما كان ذلك الخوف ممـا يتعلق بالشىء لأجل ذلك الشىء أعظم من ذكر الخوف من ذلك الشىء نفسه، قال: (مقام ربه) أى قيامه بين يدى المحسن إليه عند تذكر إحسانه»[2].

معنى ذلك أن من خـاف المقام خاف رب المقـام، ونَهْى النفس عن الهوى يكون بالخوف.

وهكذا توضع كل كلمة مـوضعهـا المناسب لها، والأخص الأشكل بها، وقد ذكر لفظ الخشية ثلاث مرات فى السورة ذاتها:

قال تعـالى: «وأهديك إلى ربك فتـخشى» (النازعـات ١٩)، وقال تعالى: «إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى» (النازعـات ٢٦)، وقال سبحانه: «إنما أنت منذر من يخشاها» (النازعات ٤٥).

وذكر الخـوف مرة واحدة فى الشاهد الذى درسناه، وسـياق كل آية يناسبه ما ذكر فيه.

---

(١) نظم الدرر ٣ / ٣٩٣ .

(٢) السابق ٨ / ٣٢٠ .

فالآية الأولى تفرعت فيها الخشـية على الهداية تنبيها على أنه يهديه هداية تفضى إلى الخشية لوضوح هدايته واقترانها بالمواعظ والحجج، فهى تأتى بخشية الله لو كان قاصدا أن يهتدى»(1).

معنى ذلك أن هذه الهداية لو تحققت فإنها لا تثمر مجرد الخوف من الله وإنما تثمر الخوف الذى يناط بالإجلال والتعظيم، وذلك مقام الخشية؛ لأنه إذا اهتدى عـرف الله حق المعرفة، وخـشية الله لا تكون إلا بمعرفـته «إنما يخشى الله من عباده العلماء».

وذكر الخشية هنا يناسب بيان قوة الداعى إلى الله؛ لأنه أراد أن يلبى نداء ربه حين أرسل إلى فرعـون بتلك الرسالة اللطيفة علـى أكمل وجه، ولعلهـا من جـملة الكلام اللين الذى جـاء فى قوله تـعالى: «اذهبـا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى» (طه٤٣، ٤٤).

والذى يتـذكر قدرة الله لابد أن يـخشاه، أى اذهبـا على رجائـكما وطمعكما، وجاء هنا هذا المعنى فى باب تسلية الرسول ﷺ:

«هل آتاك حـديث مـوسى إذ ناداه ربه بالواد المقـدس طوى، اذهب إلى فـرعون إنه طـغى، فقل هل لـك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى».

أمره الله أن يلطف معه القول، وعبر بلفظ التزكى لأنه يفيد التطهر، وإذا تطهر من كفره وشركـه بلغ به ذلك إلى درجة التعظيم والإجلال لله فكان خاشيا له، وتلك منزلة الخائف بشدة تجلى بقوة تعليم سيدنا موسى له وشدة إحاطته بقدرة الله.

---

(1) التحرير والتنوير، تفسير جزء عم ١٥٥ .

والآية الثانية التى ذكر فيها لفظ الخشية: «إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى» (النازعات ٢٦) جاءت بعد إعراض فرعون وتكذيبه وعصيانه وبعد أن أخذه الله أخذ قهر وذل «فأخذه الله نكال الآخرة والأولى»، حيث جعله الله مثلا وعبرة لمن يعتبر، وناسب هذا ذكر الخشية دون الخوف؛ لأن موقفه هذا لا يستدعى مجرد الخوف فقط، بل أشد الخوف وأعظمه، ذلك الذى به يكون الاعتبار الذى يتجلى فى التعبير بـ «أخذه» الدال على التمكين والغلبة، كما قال تعالى: «فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر»، والتعبير باسم الجلالة (الله) الدال على القوة والهيمنة، وقوله «نكال» الدال على الأخذ والتعذيب وهو عقاب الجانى بعذاب من شأنه أن ينكل أى يرد ويرجع من يراه أو يبلغه خبره عن أن يأتى مثل جنايته، ثم أريد منه مطلق الشدة البالغة[1]، وذلك يكون فيم يعلم العاقبة، ويتفطن لها، ومن كان هذا أمره لابد أن يصاحب اعتباره إجلال وهيبة.

والآية الثالثة جاءت فى ختام السورة: «يسألونك عن الساعة أيان مرساها، فيم أنت من ذكراها، إلى ربك منتهاها، إنما أنت منذر من يخشاها» (النازعات ٤٢ : ٤٥).

هنا خص (من يخشاها) لأنه هو المنتفع بالإنذار، لذلك جاء عقبها: «كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها» لبيان قِصر مقامهم فى الدنيا، ومن يعتبر ذلك يكون أسرع الناس استجابة وانتفاعا.

والإنذار: «إخبار فيه تخويف، كما أن التبشير إخبار فيه سرور»[2].

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٦ جزء عم.

(٢) المفردات للراغب (نذر).

وقد جاء التعبير بالإنذار مع الخشية ثلاث مرات شاهدنا هذا واحدا منها، والثانية قوله تعالى: «إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب» (فاطر١٨)، والثالثة قوله تعالى: «إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب (يس ١١).

وذكر الإنذار مع الخوف مرة واحدة هى قوله تعالى: «وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم» (الأنعام ٥١).

والإنذار من الألفاظ التى اشترك فيها التعبيران أيضا (الخوف والخشية) عُبر به مع الذين يخشون ربهم لبيان أنهم هم المنتفعون به لأنهم عرفوا الله فعظموه، وعُبر به مع الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم؛ لأنهم علموا أن هناك حشراً ويخافون منه وكأنهم لا يخافون الله، بل يخافون يوم الجمع، ففيهم جفاء يحتاج إلى التخويف وشدة الإنذار.

قال البقاعى: «وليس المراد تخصيص الإنذار بالخائف بل الإشارة إلى جلافتهم وعظيم بلادتهم وكثافتهم فى عدم تجويز الجائز الذى هو أهل لأن يخافه كل واحد»[1].

***

وكذلك اشترك التعبيران الخوف والخشية فى المجيء مع اسم الجلالة جاء التعبير بالخوف مع اسم الجلالة ست مرات وبالخشية تسع مرات.

ومعظم آيات الخوف فى أمور تتعلق بأحوال البشر وطبائعهم وتصرفاتهم، كما فى قوله تعالى: «وإن امرأة خافت من بعلها. . . وإن خفتم ألا تقسطوا. . . إن خفتم ألا تعدلوا. . . وإن خفتم شقاق بينهما» وهكذا.

---

(١) نظم الدرر ٢: ٦٤٢ .

وهذا البيان فى آيات الخشية أقل منه فى آيات الخوف، ولكن قد يأتى التعبير لبيان الخوف من الله والخشية لله وأحقيته بها دون أحد سواه أيًّا كانت منزلته.

أولا: التعبير بالخوف مع اسم الجلالة:

بالنظر فى الآيات التى ذكر فيها الخوف مع اسم الجلالة نلحظ أنه جاء فى أمور متوقعة ومترقبة ومكروهة لدى النفس، والتخويف يكون منها.

قال تعالى حكاية عن ابنى آدم: «لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين» (المائدة ٢٨).

تشير الآية إلى أنه يتبرى عن مقدمات القتل فضلا عن القتل، وذلك لأن نفسه تأباه، وتكره عاقبته وتخاف عقاب الله.

ولما كان الخوف ـ كما قال الرازى ـ: حالة نفسية مخصوصة، وسبب حصولها ظن أنه سيحدث مكروه فى المستقبل، أو هو الإشفاق مما يكره وقوعه[1].

لما كان ذلك كذلك ناسب أن يعبر به ليبين عما فى نفسه، ويفصح عن شعوره ودواخله تجاه أخيه من جانب، وخوفه عاقبة ذلك من جانب آخر.

فكان قوله: «إنى أخاف الله رب العالمين» تعليلا للامتناع عن بسط يده لقتله، وفيه إرشاد قابيل إلى خشية الله تعالى على أتم وجه، وتعريض بأن القاتل لا يخاف الله تعالى[2].

---

(١) ينظر تفسيره ٥ / ٧١ .　　(٢) السابق ٦ / ١١٣ .

فَهمُّه منصب على الخوف من المكروه الذى وقع فيه أخوه وهو أن باء بالإثمين وكان من الخاسرين.

وسبق أن الخوف حذر من أمر لم يقع، لذلك ناسب أن يعبر به هنا.

= وكذلك يعبر بالخوف مع اسم الجلالة فى سياق المكر والخداع، والتبرى من الشر بعد الإيقاع فيه لبيان معرفة الأمر المنتظر والمتوقع حصوله.

نرى ذلك جليا فى غرور الشيطان للذين خرجوا بطرا ورئاء الناس يوم بدر، وإيهامه إياهم بأنه جار لهم، ثم فراره منهم حين رأى قوة المؤمنين وتأييد الله لهم بالإمداد من الملائكة.

قال تعالى: «ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله، والله بما يعملون محيط، وإذ زين لهم الشيطان أعمالم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى ما لا ترون أنى أخاف الله والله شديد العقاب» (الأنفال ٤٧، ٤٨).

نلحظ أنه تبرأ منهم بعد أن أوقعهم فى الهلاك بعلتين:

الأولى: إنى أرى ما لا ترون.

الثانية: إنى أخاف الله.

وإن صدق فى الأولى فهو كاذب فى الثانية.

وقال قتادة وابن الكلبى: «معذرة كاذبة لأنه لم يخف الله قط، وقال الزجاج: بل خاف مما رأى من الهول، خاف أن يكون اليوم الذى أنظر إليه»[1].

وجاء التعبير باسم الجلالة لأنه يعلم عظمة الله وهيمنته، وقد رأى بعينى بصره المدد الذى كان مع المؤمنين، ولكن خوفه لا يشوبه إجلال حتى يأتى التعبير بلفظ الخشية.

وكذلك ضرب المثل بالشيطان فى حديث القرآن عن موقف المنافقين مع بنى النضير وكذبهم فى وعدهم لهم وأن مثلهم فى ذلك كمثل الشيطان.

قال تعالى: «كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين، فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين» (الحشر ١٦، ١٧).

الشيطان فى الآية السابقة تمثل لهم فى صورة سراقة بن مالك خداعا وكذبا، وفى هذه الآية مثل المنافقين، أى أنه هنا عبارة عن المنافقين، وعلل براءته منهم بالخوف من الله رب العالمين، خداعا لهم ولا خوف عنده، بل هو مزين ومخادع، لذلك كانت عاقبة المزيِّن والمزيَّن له هى النار، ومعنى ذلك أنه يعبر بالخوف دون الخشية فى مثل هذه المواقف من الرياء والمكر والتزيين.

= أما قوله تعالى: «ليعلم الله من يخافه بالغيب» فجاءت فى سياق التحريم والابتلاء، وبث العظة بين الناس.

---

(١) النهر الماد من البحر المحيط ٤ / ٥٠٥، ٥٠٦ .

قال تعالى: «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم» (المائدة ٩٣، ٩٤).

هذا ابتلاء فى حال الإحرام فى البيت الحرام الذى جعله الله آمنا فلا يحل فيه القتال، وقد حددت الآيات بعد ذلك الصيد المحرم والمحلل فى قوله تعالى: «أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما».

= لا ريب أن الله عز وجل يعلم من يخافه ومن لا يخافه لكنه قال: «ليعلم الله من يخافه بالغيب» تبيانا للناس، من يمتثل ومن لا يمتثل، لذلك قال: «بالغيب» لبيان أنه يخرج بالامتحان ما كان من أفعال العباد فى عالم الغيب إلى عالم الشهادة فيصير تعلق العلم به تعلقا شهوديا، كما كان تعلقا غيبيا، لتقوم بذلك الحجة على الفاعل فى مجارى عاداتهم[١].

وكان الاختبار بشيء فى متناول أيديهم لتتجلى عظمة الله فى امتثال أوامره، وجاء التعبير بـ «يخافه» دون «يخشاه» لأن مجال الاختبار مجال خوف، وليس مجال خشية؛ لأن الاختبار لا يكون بأمر قد وقع حتى يسأل عن مدى التعظيم فيه وإنما يكون بأمر لم يقع بعد.

---

(١) نظم الدرر ٢ / ٥٤٠ .

أما قوله تعالى فى شأن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم: «لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون» (الزمر ١٦).

فجاءت فى بيان الحث على إخلاص العبادة لله، والله عز وجل يذكر هنا شأن الخاسرين تخويفا لترقى درجة الإيمان عندهم.

وذلك التخويف يدفع إلى التقوى، ومن ثم قال: «يا عباد فاتقون» وتلك التقوى تحث على الخشية التى تتعلق بالقلوب وتثمر السمع والطاعة.

ويبقى من الآيات التى ذكر فيها الخوف مع اسم الجلالة قوله تعالى ضاربا المثل للمؤمنين بقرية من القرى التى تبطر أهلها، وكفروا بأنعم الله ترهيبا لهم من هذا المصير وترغيبا فى نقيضه: «وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الخوف والجوع بما كانوا يصنعون» (النحل ١١٢).

هذا ضرب من الإنذار الذى استهلت به السورة: «أتى أمر الله فلا تستعجلوه» جعل الله فيه الخوف نوعا من الهلاك وعطفه على الجوع الذى ألبسهم الله إياه بطريق الإذاقة الدالة على شدة أثره فيهم، وقوة إحساسهم به. ووضع الإذاقة موضع الابتلاء، وعبر باللباس لظهور أثر ذلك عليهم أى أن الابتلاء وقع عليهم بأمرين هما الجوع والخوف، وقد ظهر أثر الجوع على أجسادهم بالهزال، وعلى وجوههم بالاصفرار، وساعده على ذلك الخوف الذى ينتاب القلوب، وكان الابتلاء بالجوع؛ لأنهم كانوا فى رغد من العيش، وبالخوف لأنهم كانوا فى طمأنينة، فلما كفروا بأنعم الله سلب منهم نعمته فانقلبت نقمة عليهم فتبدل الرغد جوعا، والأمن خوفا بما كانوا يصنعون.

وهذا التعبير بالمضارع يدل على ممارستهم ذلك الكفر، ونظير هذه الممارسة جعلهم الله يمارسون الجوع والخوف.

قال الراغب: «فاستعمال الذوق مع اللباس من أجل أنه أريد به التجربة والاختبار، أى فجعلها تمارس الجوع والخوف، وقيل إن ذلك على تقدير كلامين، كأنه قيل أذاقها طعم الجوع والخوف وألبسها لباسهما»(١).

والخوف من الأمور التى يبتلى بها، وليس فى ذلك الخشية لأنها تعظيم ومهابة، وهذه مرحلة أعلى من مجرد الخوف.

ثانيا: التعبير بالخشية مع اسم الجلالة:

أما التعبير بالخشية مع اسم الجلالة فقد جاء فى تسع آيات كلها تحث على بيان عظمة الله، وأنه أولى بالخشية من كل أحد.

وتتنوع الخشية فى هذه الآيات التسع فمنها:

١ ـ ما يكون فى الجمادات وفيها خشية تناسبها، قال تعالى بعد أن شبه قلوب بنى إسرائيل بالحجارة، وأنها أشد، وأن فى الحجارة من الخير ما ليس فى قلوبهم مثله: «وإن منها لما يهبط من خشية الله» (البقرة ٧٤).

فالحجر يمتثل لأمر الله، حيث يهبط من مكان إلى آخر، وقلوبهم لا تمتثل، ومعنى ذلك أن الحجر أفضل منها.

فالأمر فى حق القلوب كالإرادة فى حق الحجارة التى تمتثل للأمر التكوينى، وقلوبهم تتعاصى عن الأمر التكليفى، وفى ذلك تذكير له بالحجارة المتهافتة من الطور عند تجلى الرب(١).

---

(١) المفردات: (ذوق). (٢) ينظر الدرر ١ / ١٧٤، والتحرير والتنوير ١ / ٥٤٣.

= والجبل يخضع ويتصدع من خشية الله.

قال تعالى: «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله» (الحشر ٢١).

فى الآية مدح للنبى ﷺ فى ثباته لما لا تثبت له الجبال، وذم للمعرضين بأنهم أقسى من الجبال، فلم تحملهم الألوهية التى ينبئ عنها اسم الجلالة (الله) - بما فيها العظمة - على خوفه(١).

مع أن هذا الكلام لو قدر الله نزوله على جبل لتصدع وتشقق، وتلك قلوب تظن أن حصونها تمنعها من الله، ولم يقل هنا (من خوف الله) لأن عظمته فى القلوب تقشعر لها الجوارح، والخشية: وجل القلب مما يستعظم...

٢ - ومنها ما جاء فى بيان خشية الناس، وكان ذلك فى أمور منها:

أ - بيان شأن من طلبوا قتال المشركين وبسطوا أيديهم لذلك، فلما كتب عليهم كانت خشيتهم للناس كخشيتهم لله أو أشد، وتمنوا ألا يكون القتال خوفا من المشركين وتعظيما لأمرهم ومن ثم جاء التعبير معهم بلفظ الخشية؛ لأن الخوف قد وقع شديدا على قلوبهم.

قال تعالى: «ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا» (النساء٧٧).

---

(١) ينظر تفسير الفخر للرازى ٢٨ / ١٧٣ .

فلما كان خوفهم شديدا، وقد وقع فى قلوبهم الرعب الذى يدل على هيبتهم الناس كهيبتهم الله أو أشد قال: «يخشون الناس»؛ لأنهم لم يخافوا مجرد القتال بل عظم أمر الناس وكثرتهم فى أعينهم، وأبانوا عن ضعفهم بقولهم: «ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب»، وكانت حالتهم تلك تستدعى التعجب من شأنهم وما حل بهم من ضعف.

ب - ومن مجىء الخشية مع اسم الجلالة فى بيان شأن من شئون البشر موقف النبى ﷺ وحياته من الناس الذى عبر عنه بلفظ الخشية لعظم هذا الأمر فى نفوس المتقولين، وذلك فى بيان زواجه من زينب نراه فى قوله تعالى: «وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أم تخشاه» (الأحزاب ٣٧).

معنى ذلك أن الله عز وجل أبدى له أمر زواجه من زينب بعد أن يفارقها زيد، وكانت قضية التبنى واقعة فى حياتهم وثابتة فى عصرهم، فكيف يتزوج محمد زوجة متبناه؟، فخشى النبى إظهار هذا الأمر مخافة أذى ألسنة المتقولين، ولم يكن لهم علم بإبطال عادة التبنى فى الإسلام فقال لزيد: «أمسك عليك زوجك واتق الله» فى حقها وشأنها، فقال له الله عز وجل: قلت ذلك والحال أنك «تخفى فى نفسك ما الله مبديه» والسر فى ذلك يعلمه الله «وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه».

ومن هنا نلحظ أن خشية النبى ﷺ للناس لم تكن إجلالا وتعظيما لهم، بل هى عظمة تقولهم، وكان يضيق بذلك كما قال سبحانه: «ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون» فلما كان الأمر عظيما عبر بالخشية.

أما قوله سبحانه: «والله أحق أن تخشاه» فهو تذكير وتنبيه بأن يتحول أمره هذا تجاه الناس إلى الله الذى له الأمر كله فلا يبالى بغيره، وتلك صفات الأنبياء كما قال تعالى: «الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا» (الأحزاب ٣٩).

قال الزمخشرى: «ووصْف الأنبياء بأنهم لا يخشون إلا الله تعريض بعد التصريح فى قوله تعالى: «وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه»[١].

جـ - ومنها نهى القرآن عن خشية أئمة الكفر، الناقضين للعهود والمواثيق، وحثه على مقاتلتهم، واللوم والتعنيف على خشيتهم لو وقعت.

قال تعالى: «وإن نكثوا أيانهم من بعد عهودهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون، ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة أتخشوهم فالله ورسوله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين» (التوبة ١٢، ١٣).

فلفظ الخشية هنا «أتخشوهم» يدل على عظمة الموقف، والمراد أتخافون مصادمتهم ومواجهتهم فى القتال وهم على الباطل وأنتم على الحق؟!.

وشدة الإنكار والتوبيخ فى الاستفهام هنا غرضها الحث والإلهاب على القتال والإقدام على الموقف دون أن يكون فى الحسبان أحد إلا الله.

وجاء هذا الإلهاب بلغتين من قِبَل الله عز وجل هما:

الأول: «فالله أحق أن تخشوه» أى خشيته هى الأجدر؛ لأنها تعصم دون سواها من كل هول سوء.

---

(١) الكشاف ٣ / ٢٦٤ .

والثـانى: «إن كنتم مـؤمنين»، وهذا التـذييل فيـه قـمة الإيقـاظ، وتحريك الهمم، والبـعث على قوة التصدى؛ لأنه سـبحانه يعلم إيمانهم، ولـكنه يحـرك فيـهم الغـيـرة على الإيمان، والتعـبير بلفظ الخـشية هو الذى ينـاسب عظمة الموقف. . ويجلى عظمة الله فوق كل شىء.

٣ ـ من المواقف التى جاء فيها التعبـير بلفظ الخشية مع اسم الجلالة ما جاء من ترتيب الهداية والفوز على الخشية.

قال تعالى: «ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعـمالهم وفى النار هم خالدون، إنما يعمر مسـاجد الله من آمن بالله والـيوم الآخر وأقـام الصلاة وآتى الزكـاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين» (التوبة ١٧، ١٨).

فهذه الأعمـال العظيمة فى أعين أصحابها لا شـأن لها؛ لأنها بنيت على عبـادة غيـر الله، والأحق بإعمار مـساجد الله مـن آمن بالله واليوم الآخر. . . وأدى به عمله إلى خشية الله دون غيـره، خشية تترتب عليها الهداية التى لم تكن من المشركين أبدا، لذلك ختم أمـرهم ببيان مصيرهم الدائم: «أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم فيها خالدون»، وختم شأن الذين أخلصوا العبادة لله، وكانت خشـيته أعظم شىء فى نفوسهم بقوله تعالى: «فعـسى أولئك أن يكونوا من المهتدين» وفى هذا إيماء إلى تبـعيد المشـركين عن مواقف الاهتـداء وحـسم لأطماعـهم التى اسـتعظمـوها، وافتخروا بهـا وأمّلوا عاقبتها، بأن الذين آمنوا وضـموا إلى إيمانهم العمل بالشرائع مع استشعار الخشـية والتقوى اهتداؤهم دائر بين (عسى) و(لعل) فما بال المشركين يقطعون بأنهـم مهتدون، ونائلون عند الله الحسنى، وفى

هذا لطف للمؤمنين فى ترجيح الخشية على الرجاء ورفض الاغترار بالله تعالى»(١).

فالتعبير بالخشية هنا يبين عظمة الله فى القلوب وأنها تثمر الهداية وتحمل على التقوى، ولكن جاء التعبير بـ (عسى) يبين ذلك فى شأن هؤلاء ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم.

أما قوله تعالى: «إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون، ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون» (النور ٥١، ٥٢)، فجا فى بيان شأن قوم رسخت دعائم الإيمان فى قلوبهم، وبلغت بهم هذه المرحلة (سمعنا وأطعنا)، ومن جمع منهم بين ذلك وبين خشية الله وتقواه كان عند الله جديرا بهذا الحكم الدائم الثابت «فأولئك هم الفائزون».

فالسياق هناك كما سبق سياق حث على الإيمان، ولكنه هنا بيان لن أثمر الإيمان عندهم (السمع والطاعة)، ومن سار على نهجهم فضم إلى الطاعة: الخشية ولاتقوى «فأولئك هم الفائزون».

وفرق بين الفلاح والفوز: الأول: ظفر وإدراك بغية، والثانى: ظفر بالخير مع حصول السلامة(٢).

وهذا يدل على عظمة الخشية لله، وبيان عاقبتها، وأنها تثمر التقوى التى تقى صاحبها من المعاصى حتى تحصل له السلامة والأمن، ففى الفلاح ظفر وفى الفوز نجاة والله يبين شأن الماضين ليقتدى بهم السامعون.

---

(١) الكشاف ٢ / ١٨٠ .

(٢) ينظر المفردات (فلح وفوز).

كلمات أخرى اشترك فيها التعبيران (الخوف والخشية)

كلمة (الرهق) بمعنى التغشية، قال الراغب: «غشيه بقهر»[(١)].

جاء ذلك فى آيتين: واحدة فى إخبار القرآن الكريم عن موقف العبد الصالح مع سيدنا موسى عليه السلام، وواحدة فى إخباره عن بعض مؤمنى الجن الذين آمنوا بالقرآن بعد أن استمعوا له.

أما الأولى فقوله تعالى فى بيان تأويل مواقف الخضر مع سيدنا موسى: «وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما» (الكهف ٨٠، ٨١)، والثانية قوله تعالى: «وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا» (الجن ١٣).

نلحظ فى الآية الأولى استعمال الخشية مع الرهق فقط، وفى الثانية استعمال الخوف مع البخس والرهق. لكن الرهق فى الأولى محدد «طغيانا وكفرا»، وفى الثانية مطلق «فلا يخاف بخسا ولا رهقا» أى مكروها، أى مكروه يغشيه بقهر وذل.

وسر استعمال الخشية فى حديث العبد الصالح: أن الطغيان والكفر لا يقتصران على هذا الغلام، بل يمتدان إلى الوالدين المؤمنين، «فيلحق بهما بلاء وشرا بسوء صنيعه، أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره، أو يعديهما بدائه، ويضلهما بضلاله فيرتدا بسببه ويطغيا ويكفرا بعد الإيمان، وإنما خشى الخضر ذلك لأن الله تعالى أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمره، وأمره إياه بقتله كاخترامه لمفسدة عرفها فى حياته»[(٢)].

---

(١) المفردات (رهق).

(٢) الكشاف ٢ / ٤٩٥.

ولا يناسب هذا البيان إلا لفظ الخشية؛ لأنها الخوف من شيء قد وقع، وهذا الغلام كان قد طبع على الكفر كما ورد في حديث النبي ﷺ: «إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافرا، ولو عاش لأرهق أبويه طغيانا وكفرا»(١).

واستعمال الخوف في حديث مؤمني الجن: «فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا» لأنه حث على الإيمان وتحذير من تركه الذي يؤدي إلى البخس وغشيان المكروه بقهر وذل.

لفظ (اليوم):

اقترنت به الخشية بطريق الأمر، واقترن به الخوف بطريق الإخبار، ولكل سياق دلالته.

وقعت عليه الخشية في آية واحدة هي قوله تعالى: «يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جار عن والده شيئا» (لقمان ٣٣).

وعبر بالخوف معه في ست آيات... وقع الخوف على اليوم مباشرة في اثنتين منها هما:

قوله تعالى: «يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار» (النور ٣٧)، وقوله تعالى: «يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا» (الإنسان ٧).

---

(١) أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود.

ولما ذكر فى آية الخشية الأمر بالتقوى كان حريا أن يتبعه الأمر بالخشية دون الخوف؛ لأن الأمر بحفظ النفوس ووقايتها لا يناسبه ذكر الخوف، وإنما يناسبه ذكر الخشية حتى يكون التقرب إلى الله على سبيل التدريج، وتكون التقوى ممهدة إلى شدة الخوف.

وهنا تقدمت التقوى على الخشية فى سياق الأمر الذى يرهب من هول اليوم الذى لا نظير له لهوله.

أما سياق الترغيب فتقدمت فيه الخشية كما سبق فى بيان قوله تعالى: «ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون»؛ لأنه ترغيب فى المداومة على إيتاء طاعة الله وحفظ النفس من المعاصى.

كما أن الترهيب يناسبه الأمر لما فيه من قوة وإلزام يتوافق مع الخشية بما فيها من هيبة وتعظيم.

والترغيب يناسبه الإخبار لما فيه من ليونة ولطف، ولذا جاءت آيات التخويف من اليوم بطريق الإخبار، كما فى آية النور التى تحكى شأن المداومين على التسبيح، وأنهم رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله والسر فى ذلك: يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار».

وجاء التعبير بالخوف دون الخشية؛ لأن نفوسهم انشغلت بما يقع فيه من أمور مخيفة، ولم تلتفت حينئذ إلى عظمة موقعها.

والخوف - كما سبق - يعبر به عن الفزع فى المستقبل، ولذلك جاء التعبير به فى آيات الخوف من يوم القيامة بما فيه من أوصاف وأهوال، كقوله تعالى: «إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا» (الإنسان ١٠)،

وقوله تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: «ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد» (غافر ٣٢)، وقوله تعالى: «يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون» (الزخرف ٦٨)؛ لأنه سبحانه وتعالى يعلم ما فى قلوبهم من وجل وفزع.

وكذلك الشأن فى إرشادات الرسل لأقوامهم، كما حكى القرآن الكريم عن سيدنا نوح عليه السلام: «لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم» (الأعراف ٥٩)[1].

---

(١) ينظر يونس ١٥، والشعراء ١٣٥، والزمر ١٣، والأحقاف ٢١، والآيات التى وصف فيها اليوم وعذابه بأنه كبير وأليم ومحيط كما فى هود ٣، ٢٦، ٨٤.

دلالة اجتماع الخوف والخشية فى آية واحدة

جاء التعبير بالخوف والخشية معا فى ثلاث آيات، كل آية تحكى موقفا معينا، للتعبير بالخوف فيه دلالة تناسبه، وكذا التعبير بالخشية، وليس اجتماعهما من باب المغايرة فى الألفاظ، وبالنظر فى المواقف الثلاثة تتجلى خصائص التعبير.

الأولى قوله تعالى: «وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا» (النساء ٩).

نلحظ أن الأمر بالخشية هنا فيه حث وتنبيه لأولى الأمر على مراعاة أحوال ذوى القربى واليتامى والمساكين المنصوص عليهم فى الآية قبلها: «وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا»، وأن يعتبروا وضع ذريتهم موضع هؤلاء فينظروا فى أمرهم كنظرهم فى أمر ذريتهم أو أشد.

وجاء التعبير بالخشية فى ذلك تليينا وتلطيفا لقلوبهم، وسبق أن الخشية محلها القلب، ثم عبر بعدها بالخوف بطريق الخبر «خافوا عليهم»؛ لأنه يتعلق بأمر مستقبل، أى لو تركوا ذريتهم كذلك خافوا عليهم.

أما التعبير بالخشية فجاء بطريق الإلزام «وليخش» بيانا لعظمة شأن هؤلاء عند الله، وعدم الاستهانة بحقوقهم، فهم أكرم على الله من ذلك، ومن ثم نجم عن ذلك وترتب عليه الأمر بالتقوى «فليتقوا الله».

وعبر بالاسم الأعظم إرشادا إلى استحضار جميع عظمته، أى فليعدلوا فى أمرهم ليقيّض الله لهم من يعدل فى ذريتهم، وإلا: أوشك أن يسلط على ذريتهم من يجور عليهم، وليقولوا قولا سديدا، أى عدلا قاصدا صوابا ليدل هذا الظاهر على صلاح ما أثمره من الباطن»(١).

ولذلك لم يصلح أن يقال «وليخف» مكان «وليخش» لاختلاف الشأن بين ذرية صاروا ضعافا، وذرية يتوقع أن يكونوا كذلك.

ومقام الخشية جلى فى الأول، ومقام الخوف جلى فى الثانى كما بنيت عليه الآية الكريمة.

= والآية الثانية التى اجتمع فيها التعبيران قوله تعالى فى بيان شأن أولى الألباب: «والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب» (الرعد ٢١).

سبق بيان هذه الآية فى الفرق بين الخوف والخشية بما يفيد بيان عظمة الله، وأنه يخشاه كل أحد، أما الحساب فربما لا يخافه من كان عالما به وحاسب نفسه قبل أن يحاسب.

وفيه أيضا ما يدل على أن الخشية من الله فيها عموم، والخوف فيه خصوص، أبانه الزمخشرى بقوله: «أو يخشون وعيده كله، ويخافون خصوصا سوء الحساب، فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا»(٢).

---

(١) ينظر نظم الدرر ٢ / ٢١٨ .

(٢) الكشاف ٢ / ٣٥٧ .

والآية الثالثة قوله تعالى: «ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى» (طه ٧٧). الدرك هنا بمعنى التبعة واللحاق(١).

ولما كان الأمر ضده الخوف ثبت الله قلب موسى عليه السلام، وطمأنه بأنه لا يدركه أحد من أعدائه.

فجاء التعبير مع الدرك بالخوف لخصوصه، ومع غيره بالخشية؛ لأن المراد: (لا تخش شيئا آخر)، وهذا يشمل الغرق وغيره، وفى هذا تجلية لقدرة الله وعظمته واستهانة بفرعون ومن معه.

---

(١) المفردات «درك».

خصائص البيان فيما انفرد به التعبير بالخشية دون الخوف

بعد أن بينا الأمور التى عبر معها بالخوف تارة وبالخشية أخرى، والسياقات التى اجتمعا فيها، والفروق بينهما لاحظنا أن هناك أمورا عُبر معها بالخشية دون الخوف، وأموراً أخرى عُبر معها بالخوف دون الخشية، ولكل سياق دلالته.

ونبدأ بما انفرد به التعبير بالخشية لما لها من عظيم الدلالة فى أمور تحيط بشئون الدنيا والآخرة، وهى أعم مما انفرد به التعبير بالخوف، من أمور تنظر فى علاقات البشر وأحوالهم، كما فى قوله تعالى: «وإن امرأة خافت من بعلها»، وقوله تعالى: «وإن خفتم شقاق بينهما»، و«إن خفتم عيلة» ونحو ذلك.

= الخشية واسم (الرحمن):

وقع التعبير بالخشية على اسمه تعالى (الرحمن) فى القرآن الكريم مرتين: الأولى: فى قوله تعالى: «إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب» (ق ٣٢، ٣٣).

فإذا كانت الخشية أشد الخوف، وفيها تعظيم ومهابة تدل على يقين الخاشى وشدة تعلقه بمن يخشاه فهى أعم من الخوف.

وقعت على اسمه تعالى (الرحمن) لما فيه من السعة والشمول، فمن كانت رحمته واسعة يجب أن تكون خشيته قوية، والخوف منه أتم وأعظم سواء فى الأمور المشاهدة أو الأمور الغيبية.

ولا يتعارض هذا مع اسم الجلالة فإنه ينبئ عن الهيبة، وهذه يستعمل معها الخوف، وتستعمل معها الخشية كل فى المقام الذى يناسبه.

أما (الرحمن) فاستعملت معه الخشية دون الخوف لما فيه من لطف يورث الاتكال، والمؤمن يخشاه مع علمه بسعة رحمته، لذلك قال سبحانه: «إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم»، فبعد أن ذكر شأن الغافلين الذين استوى عندهم الإنذار وعدمه بيّن شأن من ينفعه هذا الإنذار بأنه «من ابتع الذكر وخشى الرحمن بالغيب».

ذلك الذى يجتهد فى اتباع أوامر الله والبحث عن معرفتها حتى تكون خشيته لله عن علم وبصيرة، يدل على ذلك قوله: «اتبع» وما فيه من جهد ومشقة تنبئ عن صيغة الافتعال، فهو لا يكف عن المعاصى فقط حتى يكون خائفا، وإنما يجتهد فى معرفة الله وذكره حتى يكون خاشيا.

= وفرق بين (تبع) و(اتبع) لا يخفى على ذى بصيرة يتجلى مثلا فى قوله تعالى: «فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (البقرة٣٨).

فإذا كان الحق سبحانه وتعالى نفى عنهم الخوف الذى ينتاب القلوب وأثبت لهم السلامة نظير اتباعهم هداه وسيرهم على نهجه فما بال من قال فيهم: «فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى» (طه ١٢٣).

هذه أوفى بأداء العمل وأقوى، لذلك قال: «فلا يضل ولا يشقى» فى الدنيا والآخرة، وهو أبلغ فى نفى الخوف والحزن عنه، لذلك كانت هذه التذكرة (فى سورة طه) لمن يخشى لا لمن يخاف فحسب كما جاء فى مقدمة السورة: «طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، إلا تذكرة لمن يخشى».

وعلى هذه الشاكلة قوله تعالى: «أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير» (آل عمران ١٦٢) أى اتبعه بجد واجتهاد ومثابرة.

فهو على حذر دائم وحرص مستمر، وكانت الخشية هى مفتاح كل ذلك والدافعة إليه، لذلك تقدمت على الإشفاق فى شواهدها الثلاثة كما فى الآية السابقة، وكما فى قوله تعالى: «يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون» (الأنبياء ٢٨).

وقوله تعالى: «ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين، الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون» (الأنبياء ٤٨، ٤٩).

الخشية والقشعريرة:

الخشية تؤدى بما فيها من معنى الهيبة والإجلال إلى قشعريرة فى الجلود أى إرعاد واهتزاز يؤدى إلى تيبسها، جاء ذلك فى آية واحدة هى قوله تعالى: «أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين، الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد» (الزمر ٢٢، ٢٣).

بينت الآية الأولى شأن من انقاد قلبه للإيمان، وتوعدت من قسا قلبه فلم يلن بما تلين به القلوب وتطمئن (ذكر الله)، ثم جاءت الثانية تحذر من تلك القسوة فى صورة بهية مستهلة باسم الله الأعظم «الله» ترهيبا من المجافاة وترغيبا فى الطاعة والخشوع.

(١) نظم الدرر ٦ / ٤٣٩ .

وقوله سبحانه: «وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة» (القصص ٤٢) أى جعلناها تلاحقهم أينما حلوا، وهكذا جاءت خشية الرحمن بالغيب مع من (اتبعه) لا من (تبعه).

أما قوله تعالى: «وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد، هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ، من خشى الرحمن بالغيب» فليست بيانا لمن اتبع الذكر، وإنما لمنزلة تضاهى هذه المنزلة وهى منزلة الأواب الحفيظ.

وهذا فيه مبالغة تدل على كثرة رجوعه إلى الله، وحفاظه على حدوده وعهوده.

لذلك نبه على كثرة خشيته بقوله: «الرحمن»؛ لأنه إذا خاف مع استحضار الرحمة العامة للمطيع والعاصى كان خوفه مع استحضار غيرها أولى»[1]، ومن ثم كانت خاتمته: «وجاء بقلب منيب»؛ لأنه كان توابا أوابا.

الخشية والإشفاق:

جاء التعبير بالخشية مع الإشفاق دون الخوف لما بين الخشية والإشفاق من صلة هى: التعلق بالقلب، كما أن الخشية تؤدى إلى الإشفاق، وهو يترتب عليها. وسبق أن الخشية محلها القلب، وكذلك الشفقة كما قال أبو هلال العسكرى: «الشفقة ضرب من الرقة وضعف القلب ينال الإنسان، ولذلك يقال للأم إنها تشفق على ولدها، أى ترق له، وليست هى من الخشية والخوف فى شىء، والشاهد قوله تعالى: «إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون» (المؤمنون ٥٧)، ولو كانت الخشية هى الشفقة

---

(١) نظم الدرر ٧ / ٢٦٣ .

لما حسن أن يقول ذلك، كما لا يحسن أن يقول: (يخشون من خشية ربهم)(١).

= واقترنت الخشية بالشفقة فى ثلاث آيات استدل أبو هلال بواحدة منها على الفرق بينهما، وأبان أن فى الثانية رقة وضعفا يشوبهما رحمة وعطف، وهذه جهة قلبية أعم من الأولى، قال الراغب: «الإشفاق عناية مختلطة بخوف؛ لأن المشفق يحب المشفق عليه، ويخاف ما يلحقه»(٢).

أما الخشية فرقة يشوبها تعظيم وهيبة، والإشفاق أعم منها، قال الفخر الرازى: «والإشفاق يتضمن الخشية مع زيادة رقة وضعف، فمنهم من قال: جمع بينهما للتأكيد، ومنهم من حمل الخشية على العذاب... ومنهم من حمل الإشفاق على أكثره وهو الدوام فى الطاعة. والتحقيق أن من بلغ فى الخشية إلى حد الإشفاق وهو كمال الخشية كان فى نهاية الخوف من سخط الله عاجلا ومن عقابه آجلا، فكان فى نهاية الاحتراز عن المعاصى»(٣).

وهذا شأن من تحدثت هذه الآية عنهم، فقد بلغت خشيتهم أعلى الدرجات، بدليل أن الله عز وجل وصفهم عقب هذه الآية بقوله: «والذين هم بآيات ربهم يؤمنون، والذين هم بربهم لا يشركون، والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون».

---

(١) الفروق فى اللغة ٣٢٦ .

(٢) المفردات (شفق).

(٣) تفسيره ٢٣ / ١٠٧ .

فقد وصفهم أولا بالخشية الباعثة على تجديد الإيمان، ثم ذكر بعدها الصفة الدالة على دوام الحذر «مشـفقون» ثم الصفات الدالة على خلوص الإيمان من أية شـائبـة. . إلى أن قـال: «وقـلوبهم وجلة» أى إذا ذكـرت عظمـة الله وقدرتـه لم تطمئن إلـى ما قـدمـته من الطاعـة، وتظن أنهـا مقصرة»[١].

معنى ذلك أن خشيـة الله التى محلها القلب بدت آثارها على جلود هؤلاء، وهذا يدل على شدة خشيـتهم لله، تلك التى أدت إلى ما وصف الله به جلودهم «تقشـعر» أى تهتز وتتجـمع وتتقبض تقبـضا شديدا، من القـشع وهو الأديم اليابـس، وزِيدَ حرف لزيادة المعنـى، واختـير حـرف التكرير إشارة إلى المبالغة فيه. . «الذين يخـشون ربهم» أى يخافون خوفا شديدا ويلتذون لذلة توجب إجلال وهيبة فيكون ذلك سبب ذلك[٢].

ثم جـمعت الآيـة بعد ذلك الجلود والـقلوب فى الليـونة لبيـان أن جلودهم كادت تتيبس من شدة الخوف من الله فتحاتت عنها الذنوب كما جاء فى حـديث النبى ﷺ: إذا اقشعر جلد العـبد من خشيـة الله تحاتت خـطايـاه»[٣]، أى انفرطت كمـا ينفرط عن الشجرة اليابسـة ورقها، ولما تحاتت عنها الذنوب لانت وسهلت وانقادت.

قـال الراغب: وقـوله: «ثم تلين جلـودهم وقلوبهم إلى ذكـر الله» إشارة إلى إذعانهم للحق وقبـولهم له بعد تأبيهم منه وإنكارهم إياه»[٤]،

---

(١) ينظر الفروق فى اللغة ٢٣٨ .

(٢) نظم الدرر ٦ / ٤٣٩ .

(٣) أخرجه البزار والهيثمى فى مجمع الزوائد ١٠ / ٣١٠ .

(٤) المفردات (لين).

وقدمت الجلود فى ذلك لأنه صرح فيها بالاقشعرار الذى يلزمه اليبس، وأخرت القلوب إبعاداً لها عما قد يُفهم يبسا، فيوهم قسوة، وذكر القلوب ليتجدد ذكرها مع الجلود»[1]، وتلك آثار خشية الله التى تعمل عملها فى القلوب فتؤدى إلى هدايتها وسكونها إلى ذكر الله وإيثارها إياه على كل قول أو عمل.

وكذلك جاء التعبير بالخشية دون الخوف فى أمور تجرى بين البشر لرد غيهم، ودفع الهلاك عنهم، والتحذير من موالاة أعداء الله خوفا من دوائرهم، ونهيهم عن القتل خشية الإملاق وبيان بخلهم (خشية الإنفاق)، وبيان اعتذار هارون لموسى عليه السلام.

هذه ستة مواقف من مواقف البشر جاء التعبير فيها بالخشية دون الخوف لما لها من قوة الأثر فى نفوس أصحابها، وعظم هذه الأمور عندهم ـ كما يتجلى من دراستها ـ وهى على ترتيبها المذكور فى إجمال أغراضها كما يلى:

قال تعالى فى جواز نكاح الإماء إذا دعت الحاجة إلى ذلك: «ذلك لمن خشى العنت منكم وأن تصبروا خيرا لكم والله غفور رحيم» (النساء٢٥)، أى خشى ضعف مقاومة النفس وردها عن الوقوع فيما حرم الله، يقول الراغب: «المعانتة كالمعاندة، لكن المعانتة أبلغ لأنها معاندة فيها خوف وهلاك، ولهذا يقال عنت فلان إذا وقع فى أمر يخاف منه التلف»[2].

(١) ينظ نظم الدرر ٦ / ٤٣٩ .

(٢) المفردات (عنت).

وليس أخوف من الوقـوع فيمـا حرم الله، وقال الزمخـشرى: «لمن خاف الإثم الذى يـؤدى إليه غلبة الشـهوة، وأصل العنت انكسـار العظم بعد الجبر، فاسـتعير لكل مـشقة وضـرر، ولا ضرر أعظم من مواقـعة المآثم»[1]، وكل ذلك يناسبه التعبير بالخشية دون الخوف لما فى معناها من شدة الخوف المشوب بتعظيم المخوف منه وتعظيم عقابه.

وكذلك يتجلى سر التـعبير بالخشية فى قـوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يـهدى القوم الظالمين، فـترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعـون فيهم يقولون نخشى أن تصيـبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتـح أو أمر من عنده فيـصبـحوا على مـا أسروا فى أنفسـهم نادمين» (المائدة ٥١، ٥٢).

عبر بالخـشية هنا لأن المخوف منه هو الدائرة أى السـوء الذى يحيط بهم، ولم يُعـبر بهـا إلا فى المكروه.. قال تعـالى: «عليهم دائرة الـسوء والله سميع عليم» (التوبة ٩٨)، وقال سـبحانه: «الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء» (الفتح ٦).

فكانوا يوالون أعداء الله ويتوددون إليهم مخافة إحاطة السوء العظيم بهم لما رأوا فـيهم من قـوة وغلبة، وهذا أمـر فى نفوسـهم عظيم ناسـبه التعبـير بالخشيـة فنهاهم الحق عن ذلك مبرزا لهم جـانب العظمة عنده: «فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده» مع التعبير باسم الجلالة الذى يبين لهم عظمته، وأن النصـر والفتح لا يكونان إلا منه، وإعلاء الدين لا يكون إلا بحوله وطوله.

---

(١) الكشاف ١ / ٥٢١ .

وكذلك نهى الحق سبحانه وتعالى عن اتخاذ الآباء والإخوان أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان مبينا أن حب الله ورسوله أولى من كل ذلك.

قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون، قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله وسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين» (التوبة ٢٣، ٢٤).

فمن آثر حب هذه الأمور على حب الله، وآثر إرضاء أعداء الله فقد خرج عن حجر الشرع.

ولما كانت هذه الأمور المذكورة فى الآية الكريمة أحب شىء إليهم، وأعلق شىء بقلوبهم ونفوسهم، وأشدها فى ذلك التجارة التى بها يعيشون، وتكون سببا فى الانشغال عن الله. كما كان الأمر كذلك عبر معها بالخشية لعظمةِ أمرِ بوارها فى نفوسهم؛ لأن بها معاشهم ومعادهم، وأعظم شىء تكون به عزتهم.

ولم يأت هذا التعبير: «تخشون كسادها» فى القرآن الكريم فى غير هذه الآية التى تدلل لهم على أن حب الله أقوى وأعظم شىء يتعلق بقلوبهم؛ لأنه سبب النجاة، وأساس الفلاح.

= ولشدة حرصهم على المال، وخوفهم من الفقر، وهم لا يملكون من أمر الله شيئا قال تعالى: «ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا» (الإسراء ٣١).

الإملاق خوفه متوقع، ولكن لشدة خوفهم إياه ورهبتهم منه جاء التعبير معه بالخشية، ثم قال سبحانه: «نحن نرزقهم وإياكم» مقدما ضمير الأولاد لكون الإملاق مترقبا من الإنفاق عليهم غير حاصل فى حال القتل بخلاف آية الأنعام: «ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم» (الآية ١٥١)، فالإملاق هنا حاصل عند القتل، والقتل للعجز عن الإنفاق لذلك قدم ضميرهم، ولم يرد هذا التعبير (الإملاق) فى القرآن الكريم فى غير هذين الموطنين مقرونا بأشد المحرمات فى الموقفين.

ويبين الحق شدة حرصهم وإمساكهم فيقول سبحانه: «قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا» (الإسراء ١٠٠).

وجاء التعبير بالخشية مع الإنفاق، كما جاء فى السورة ذاتها مع الإملاق لبيان شدة بخلهم، وأن خوفهم الإنفاق كخوفهم الإملاق، زاعمين أن هذا الخوف يحصّل الغنى ويمنع الفقر.

ولذلك ناسب فى الموقفين (الإملاق والإنفاق) التعبير بالخشية باعتبار أنها أشد الخوف الذى به يعظمون المال ويقترون على أنفسهم: «وكان الإنسان قتورا».

أما قوله تعالى حكاية عن موسى وهارون: «قال يا هامان ما منعك إذ رأيتهم ضلوا، ألا تتبعن أفعصيت أمرى، قال يا ابن أمّ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى» (طه ٩٢، ٩٤)، فقد سبق أنه جاء التعبير بالخشية هنا لعظمة موسى فى عين هارون.

وأمر آخر هو أن التفريق بين الناس أمره جد عظيم، وليس هذا من شيم الأنبياء ووزرائهم، ولما كان التفريق أمرا عظيما لا يليق بمقام الداعين إلى الله جاء التعبير معه بالخشية.

ومن ثم يتجلى أن الخشـية خوف بتعظيم المخـوف منه، وأنها تبعث على التـقـوى، وتحث على الامـتـثـال، وأنهـا أعم الخـوف وأعظمـه، ويصاحبها معنى الهيبة فى كل ما جاءت به من شواهد.

خصائص البيان فيما انفرد به التعبير بالخوف دون الخشية:

كما جاء التعبير بالخشية دون الخوف فيما يناسب مقامه وسياقها كذلك جاء التعبير بالخوف مع أمور تناسبه دونها على حد ما سبق من التفرقة بينهما.

وذلك كلفظ (الجنف والإثم) قال تعالى: «فمن خاف من موص جنفا أو إثما...».

والعيلة: «وإن خفتم عيلة...».

والمقام والوعيد: «ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد...».

وعذاب الآخرة: «إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة...».

والنشوز والإعراض: «وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا»، واللاتى تخافون نشوزهن...».

والتخطف: «تخافون أن يتخطفكم الناس...».

وعدم العدل: «وإن خفتم ألا تعدلوا...».

والشقاق: «وإن خفتم شقاق بينهما...».

وعدم إقامة الحدود: «وإن خفتم ألا يقيما حدود الله...».

والموالى: «إنى خفت الموالى...».

والفتنة: «وإن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا...».

والقتل: «إنى أخاف أن يقتلون...».

والتكذيب: «إنى أخاف أن يكذبون...»

وعذاب يوم القيامة بجميع أوصافه: «عذاب يوم عظيم. . . عذاب يوم كبير. . . عذاب يوم محيط. . .»، وهكذا كما سبقت الإشارة إليه.

والخيانة: «وإما تخافن من قوم خيانة. . .».

ومس العذاب: «إنى أخاف أن يمسك عذاب. . .».

وتبديل الدين: «إنى أخاف أن يبدل دينكم. . .».

والحيف: «أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله».

واللوم: «ولا يخافون لومة لائم. . .».

والظلم والهضم: «ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما».

واقترن بالحزن كثيرا: «فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

وجاء مع الفزع: «إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف».

وجاء مع الطمع فى باب الدعاء وبيان آية من آيات الله: «وادعوه خوفا وطمعا». . «ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا» وذكر التضرع مع الخيفة.

وكذلك الإيجاس وقد اجتمعت الخِيفة والخوف فى سياق واحد: «فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف. . .».

وجاء التخويف والتخوف فى باب العذاب: «وما نرسل بالآيات إلا تخويفا». . «أو يأخذهم على تخوف».

هذه الأمور التى ذكرت مع الخوف فى هذا الإجمال سبقت الإشارة إلى كثير منها فيما درسناه.

ولو تأملنا هذه الأمور التى جاء فيها التعبير بالخوف لرأيناها أمورا مستقبلة خيف وقوعها، أو متوقع حصولها وهى مكروهة لدى النفس، كخوف العيلة، والجنف والإثم، وعذاب الآخرة... إلخ.

= ولننظر فى نماذج من هذه الأمور تكفى عن النظر فى جميعها، وذلك بالنسبة للمتشابهات.

أما الأمور التى قلت نظائرها كاجتماع الطمع مع الخوف، والتضرع والخُفْية، والتضرع والخِيفة، والإيجاس والخوف.. ونحو ذلك فسنقف عندها.

قال تعالى فى شأن الأوصياء: «فمن خاف من موص جنفا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم» (البقرة ١٨٢).

أصل الجنف ميل فى الحكم، والإثم هو فعل ما يؤثم[١]، وجاء التعبير معه بالخوف لأنه أمر متوقع حصوله، وهذا شأن الخوف كما سبق بيانه، وقال الرازى: «فإن قيل الخوف إنما يصح فى أمر منتظر، والوصية وقعت، فكيف يمكن تعلقها بالخوف؟.

وأجاب عن ذلك بأمور واستحسن منها أنه إذا ظهرت أمارات الجنف يجب الأخذ فى الإصلاح قبل تحقق الوصية؛ لأن الإصلاح يكون أسهل قبل تقرير الإفساد، لذلك علقه تعالى بالخوف من دون العلم، أى أنه علقه بالخوف الذى هو الظن ولم يعلقه بالعلم[٢].

---

(١) ينظر المفردات (جنف وأثم).

(٢) ينظر تفسيره ٥ / ٧٠.

والميل هنا فيه شيء من التعمد؛ لأنه عطف عليه الإثم، وإتيان الإذاية دون تعمد هو الجنف دون إثم، وإذا تعمد فهو الجنف فى إثم، فمن خاف ذلك فوعظ وأصلح فلا إثم عليه»[1].

= وكذلك التعبير بالخوف مع عدم الإقساط والعدل فى قوله تعالى: «وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا» (النساء ٣)، كان ذلك لأجل أنها أمور متوقعة أو مظنونة وليست متحققة، فربما يتحقق العدل، لذلك جاء التعبير بأداة الشك (إن) فى الموقفين فى الآية حثا على النظر فى أمر النفس وهى أمارة بالسوء.

= وكذلك خوف النشوز والشقاق من الأمور المتوقعة يناسبها التعبير بالخوف.

قال تعالى: «واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجرونهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا، وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا» (النساء ٣٤، ٣٥)، أى اللاتى بدت عليهن علامات النشوز، أى البغض والترفع بعد السمع والطاعة، فعظوهن... واهجروهن... واضربوهن، وهذا بيان لاتخاذ جميع سبل الإصلاح، ورد الغى على التدريج باعتبار درجات النشوز.

---

(١) ينظر البحر المحيط ٢ / ٢٠٣ .

وختمت الآية بقوله تعالى: «إن الله كان عليا كبيرا» لبيان أن العلو والكبر لا يكون إلا لله، وهذا من ضمن الموعظة لأن النشز هو: التالى والارتفاع، وبغض المرأة لزوجها قد يكون من هذا القبيل، لذلك قال: «تخافون» أى تتوقعون ذلك أو تعلمونه من خلال ظهور أماراته.

وكذلك قوله تعالى: «وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا» (النساء ١٢٨)، أى توقعت منه ذلك لظهور أماراته، وكل هذا ظن وتَوَقُّع بدليل قوله: «تخافون»، وازدادت درجة الظن حتى وصلت إلى العلم فى قوله تعالى: «وإن خفتم شقاق بينهما...».

وكأن ما فعله الزوج من وعظ وهجر وضرب لم يثمر إصلاحا فاحتاج الأمر بينهما لمن يصلح، وهنا تحول النشوز من جانب واحد إلى شقاق بين الجانبين.

قال الراغب: «والشقاق: المخالفة وكونك فى شق غير شق صاحبك، أو من شق العصا بينك وبينه قال تعالى: «وإن خفتم شقاق بينهما» أى توقعتم ذلك»(١).

وهكذا كل ما جاء معه التعبير بالخوف كقوله تعالى: «وإن خفتم عيلة سوف يغنيكم الله من فضله» (التوبة ٢٨).

وكذلك تَوَقُّع سيدنا موسى عليه السلام حين أمره الله بإتيان القوم الظالمين: «قال رب إنى أخاف أن يكذبون...» وقوله تعالى: «ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون» (الشعراء ١٢، ١٤).

---

(١) المفردات (شق).

أما قوله تعالى: «واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون» (الأنفال ٢٦).

فهو من باب التذكير بنعمه التى تحث على الشكر، ومن أعظم هذه النعم أنه سبحانه آواهم وأيدهم بنصره.

والتعبير مع التخطف بالخوف يدل على شدة الخوف؛ لأن الخوف يكون من ضعف الخائف وفزعه.

وفى هذا إشارة إلى ما كانوا عليه من هوان؛ لأن الخطف كما قال الراغب: «الاختلاس بالسرعة»(١).

وقوله تعالى: «ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما» (طه ١١٢).

من باب تثبيت القلوب الوجلة، والدعوة إلى عدم توقع الظلم أو الهضم الذى هو فى الأصل الكسر والنقص تأكيدا لبيان أنه يوفى حقه فلا يتوقع نقصا قليلا أو كثيرا.

وكذلك خوف الحيف فى قوله تعالى حكاية عن المنافقين: «وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون» (النور ٤٨، ٥٠)، لما كان الرائى لهؤلاء قد يحار فى أمرهم وشأنهم؛ لأن قلوبهم تخالف ألسنتهم إذا دعوا إلى الله أعرضوا، وإن يكن لهم الحق يذعنون لما يوافق أغراضهم وأهواءهم.

---

(١) السابق: (خطف).

لما كان ذلك كذلك أراد الحق سبحانه أن يقرر أمرهم مبالغة فى ذمهم: «أفى فى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله».

والحق أن فيهم هذه الأمور، بعضها أدى إلى بعض فقلوبهم مريضة، وهذا إشارة إلى نفاقهم الذى أدى إلى ارتيابهم فى الدين، وخوفهم الحيف من الله ورسوله إشارة إلى قمة البعد والضلال، وذلك الذى أدى بهم إلى ما هو أعظم من كل ذلك «بل أولئك هم الظالمون»، فقد نفى عنهم كمال الإيمان فى قوله تعالى: «وما أولئك بالمؤمنين»، وأثبت لهم كمال الظلم وثباته لما فيهم من شدة البعد عن الحق والبغض له، والحيف هو الميل والجور وحاشا لله ورسوله من ذلك.

وعبر معه بلفظ الخوف؛ لأنه يتوقع أن يكون هذا باطنهم بعد أن أصابهم ما أصابهم فى شأن الحيف.

= وجاء الخوف مع الفزع فى آية واحدة من باب التثبيت، قال تعالى: «وهل آتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب، إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف...» (ص ٢١).

قالوا له لا تخف لأن الفزع نجم عن الخوف، قال الراغب: «الفزع انقباض ونفار يعترى الإنسان من الشىء المخيف، والخوف توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة»(١).

فلما تسووا المحراب ونزلوا من مكان لا يعتاد النزول منه توقع مكروها فانقبضت نفسه، وتُسمى هذه الحالة فزعا سببه الخوف من وقوع شىء لذا قالوا: لا تخف، وهكذا تتواءم الكلمات مع أحوال النفوس.

---

(١) المفردات (فزع).

وعطف الحزن على الخوف كثيرا كما فى قوله تعالى: «فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (البقرة ٣٨) وغيرها كثير[١]، والسر فى ذلك هو عموم التثبيت وشمول الطمأنينة لما مضى ولما هو آت فالخوف يتعلق بأمر مستقبل، والحزن يكون على أمر قد مضى، وهذا وعد بدوام النعيم. قال الفخر الرازى: «زوال الخوف يتضمن السلامة من جميع الآفات وزوال الحزن يقتضى الوصول إلى كل اللذات والمرادات. وقُدم عدم الخوف على عدم الحزن؛ لأن زوال ما لا ينبغى مقدم على طلب ما ينبغى[١].

وجاء فى الحزن بلفظ (هم) لاستبطانه، وبالفعل لأنه باد من باطن تفكرهم فى فائتهم، وجاء نفى الخوف عن فعلهم؛ لأنه خوف باد عليهم من غيرهم»[٢].

وعطف الطمع على الخوف فى أربع آيات، ثنتين منها فى باب الدعاء، وثنتين فى بيان آية من آيات الله الدالة على كمال علمه وقدرته..

فما جاء فى الحث على الدعاء قوله تعالى: «ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين» (الأعراف ٥٦).

وقوله تعالى: «تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون» (السجدة ١٦).

---

(١) ينظر الآيات: البقرة ٢٦، ٦٢، ١١٢، ٢٦٢، ٢٧٤، ٢٧٧ وآل عمران ١٧٠ .

(٢) تفسيره ٣ / ٢٩ .

(٣) نظم الدرر ١ / ١٠٩ .

فاجتماع الخوف والطمع هنا يدل على شمولية الدعاء، أى خوفا من نزول المكروه أو توقع نزوله - وتلك دلالة التعبير به كما سبق - وطمعا فيما عنده من التفضل بجزيل الثواب حتى يكون الدعاء جامعا للظاهر والباطن.

وقيل: المعنى: خوف العدل والطمع فى الفضل، ولعل سر عطف الطمع عليه هو قوة الرجاء فى عدم وقوع ما يزعج القلب؛ لأن الخوف يؤدى إلى انزعاج الباطن، والطمع يتعلق بالقلب.

قال ابن فارس: «الطاء والميم والعين أصل واحد صحيح يدل على رجاء فى القلب قوى للشىء»(١).

فالثانى منهما يدفع الأول - إن أراد الله - فليكن الدعاء من هذا القبيل خوفا من المكروه، وطمعا فى نزول المحبوب.

ونلحظ أن الآية الأولى بنيت على الإرشاد والتوجيه، الإرشاد بالنهى عن الإفساد فى الأرض: «ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها» والتوجيه بما يجب أن يكون عليه الدعاء: «وادعوه خوفا وطمعا».

أما الآية الثانية فكانت إخبارا بشأن المداومين على ذكر الله وتسبيحه: «تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا». قلوبهم دائما فى يقظة وذكر ودعاء يجعل جنوبهم تجفو مضاجعها خوفا من سخط الله الموجب لعقابه، وطمعا فى رضاه الموجب لثوابه.

فالرجاء هو الأمل فى وقوع الخير كما جاء فى معاجم اللغة، ولكنه عبر بالطمع ههنا دونه إشارة إلى أنهم لشدة معرفتهم بنقائصهم لا يعدون

---

(١) مقاييس اللغة (طمع).

أعمالهم شيئا بل يطلبون فضله بغير سبب، وإذا كانوا يرجون رحمته بغير سبب فهم مع السبب أرجى»(١).

أما إراءة البرق خوفا وطمعا فى قوله تعالى: «هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال» (الرعد ١٢)، وقوله تعالى: «ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون» (الروم ٢٤).

فهو دليل من دلائل قدرته يرينا إياه خوفا وطمعا، خوفا من آثاره وأسبابه؛ لأنه لمعان فى السماء نجم عن انفجار شحنة كهربائية فى السحاب تؤدى إلى الهلاك - إذا أراد الله ذلك - فهو علامة عذاب لذا قال سبحانه: «يكاد البرق يخطف أبصارهم»، واجتمع مع دلائل التهديد بما فيه اضطراب وانقباض، وذلك فى الآية قبلها: «أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت».

فإذا رأوا ذلك تطلعوا إلى رحمته لذلك قال: «وطمعا» قال المفسرون: أى طمعا فى الغيث، ولعلهم استدلوا على ذلك بما جاء بعد الطمع فى الآيتين: «وينشئ السحاب الثقال» و«ينزل من السماء ماء»، ولكن كلمة الطمع فيها عموم كما سبق، قد يكون الغيث واحدا منها؛ لأنه من آثار رحمته، ولا سيما بعد وقوع الصواعق، فكأن اجتماع الخوف والطمع ههنا فيه إنذار وتبشير لبيان قدرة الله على الإهلاك والرحمة.

---

(١) نظم الدرر ٦ / ٥٨ .

التضرع والخيفة:

عطفت الخيفة على التضرع فى آية واحدة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: «واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين» (الأعراف ٢٠٥).

والخيفة: هى الحالة التى عليها الإنسان من الخوف، وأصلها (خوفة) أبدلت الياء فيها من الواو لمكان الكسرة[١]، وتطلق على الهيبة والإجلال كما فى قوله تعالى: «يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته» (الرعد١٣). والتضرع: التذلل والتخشع، وهو إظهار ذل النفس يقال: ضرع ضراعة: ضعف وذل[٢].

ووجه المناسبة بينهما هو الزلة والاستكانة القائمة فى معنييهما، وقُدم التضرع لأنه أدعى إلى الضعف والانكسار بين يدى الله، لذلك قال: (خيفة) ولم يقل (خوفا) لبيان أن هذه حالة يجب أن يكون عليها الإنسان حين الدعاء.

وسياق الآية كله يشعر بقمة التذلل والخضوع لأنه قال: «فى نفسك» إشارة إلى رسوخ هذا الذكر فى النفس، بحيث يكون خالصا لله لا يراد به رياء، ثم نجم عنه هذا التضرع بما فيه من قمة الخضوع والخشوع، وقال: «خيفة» لظهور أثار هذا الوجل عليه، ثم أكد الأول (فى نفسك) بقوله: «ودون الجهر من القول» وفى هذا قمة الإخلاص[٣].

---

(١) المفردات ومعجم مقاييس اللغة (خوف).

(٢) الكشاف ٢ / ٣٥٣ .

(٣) المفردات (ضرع).

وهكذا تداعت المعانى لبيان شروط الدعاء الخالص الذى لا تشوبه شائبة.

= وقد سبق فى السورة ذاتها (تضرعا وخفية) فى قوله تعالى: «واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخفية» (الأعراف ٥٥).

وهى دعاء السر الدال على خضوع الباطن ليشمل التذلل لله ظاهرَ الإنسان وباطنه، وهذه والتى قبلها أمور مرغوبة فى باب الدعاء.

وجاءت الخيفة سبب للإيجاس فى ثلاثة مشاهد من كتاب الله اثنين منها فى موقف الملائكة مع سيدنا إبراهيم عليه السلام واحد فى موقف السحرة مع سيدنا موسى عليه السلام.

أما موقف الملائكة مع سيدنا إبراهيم عليه السلام ففى قوله تعالى: «ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبثت أن جاء بعجل حنيذ، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشوه بغلام حليم» (الذاريات ٢٧، ٢٨).

= التوجس: التسمع والإيجاس، وجود ذلك فى النفس، والوجس حالة تحصل من النفس بعد الهاجس؛ لأن الهاجس مبتدأ التفكير، ثم يكون الواجس: «الخاطر»(١).

= إذن: فالخوف بدايته إحساس بشىء مخيف، لذلك تقدم عليه الإيجاس، لبيان أنه هو الحالة الداخلية التى تولد منها هذا الخوف.

وعبر معه بالخيفة دون الخوف لبيان أنها حالة ناجمة عن حدث معين..، ولم يعبر معه بالخشية لأنه كان يتوقع مكروها.

---

(١) المفردات (وجس).

= وكذلك الشأن فى موقف سيدنا موسى عليه السلام فى قوله تعالى: «قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، فأوجس فى نفسه خيفةً موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى» (طه ٦٦ ـ ٦٨).

أوجس فى نفسه: استشعر الخوف مع علمه بأنهم لا يضرونه، وذلك لما فى طبع البشرية من ضعف القلب وفزعه لتوقع ما يخيف، ولكن كانت هذه الخيفة فى نفسه أضمرها ولم يبدها لهم، بل علمها الله فيه فثبته وأيده بنصره: «قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى»[1].

أما التخوف فجاء فى القرآن الكريم فى آية واحدة هى قوله تعالى فى شأن الذين مكروا السيئات وأمنوا عذابه: «أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم» (النحل ٤٧).

وذكر له العلماء معنيين فى الآية:

الأول: يأخذهم على مخافة، أى يأتيهم العذاب وهم متخوفون، قال الراغب: «والتخوف: ظهور الخوف من الإنسان قال: «أو يأخذهم على تخوف»[2]، وذلك بأن يهلك الله قوما قبلهم فيتخوفون زمنا ثم يأتيهم العذاب بعد ذلك، وكأنهم يعرفون مصيرهم ويترقبونه وينتظرونه.

والمعنى الثانى ما قاله ابن فارس: «أما قولهم: تخوفت الشىء أى تنقصته فهو الصحيح الفصيح».

---

(١) الكشاف ٢ / ٢٨٠ .

(٢) ينظر المفردات (خوف).

وقال الزمخشرى: «وقيل هو من قولك تخوفته وتخونته إذا تنقصته، قال زهير:

تخوف الرحل منها تامكا قردا ... كما تخوف عود النبعة السفن(*)

أى يأخذهم على أن ينقصهم شيئا بعد شىء فى أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا»(١).

ومراد الآية متوائم مع المعنيين؛ لأن المراد تعذيبهم مرتين: مرة بتخويفهم بأن يتمكن الخوف منهم، وينشأ من ذوات أنفسهم تدل عليه صيغة التفعل بما فيها من التعمل، ومرة يأخذهم، أى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وهم على هذه الشاكلة من الخوف والحذر، وهذا هو المعنى الأول.

أو يهلكهم شيئا فشيئا بأخذ الأنفس والأموال حتى يهلكوا جميعا، وهذا هو المعنى الثانى، ونظم الآية مستقيم على المعنيين.

***

وبذلك تكون قد ألمت هذه الدراسة - على إيجازها - بمعانى الخوف والخشية والفروق بينهما بما يؤكد أن لكل نوع من المعنى نوعا من اللفظ هو به أخص وأولى، وضروبا من العبارة هو بتأديته أقوم وهو فيه أجلى، كما قال عبد القاهر فى صدر رسالته الشافية.

(*) الرحل: رحل الناقة، التامك: السنام، القرد (بفتح القاف وكسر الراء: المرتفع أو المتراكم، النبع: شجر يتخذ منه القسى، السفن: المبرد والقدوم يصف ناقته بأن الرحل أثر فى سنامها وانتقصه كما ينتقص المبرد العود.

(١) مقاييس اللغة (خوف).

واهتمت هذه الدراسة أيضا ببيان خصائص السياق فيما جاء فيه التعبير بالخوف تارة، وبالخشية أخرى، وفيما جاء فيه التعبيران فى سياق واحد، وفيما انفرد به التعبير بواحد منهما دون الآخر، مبينة دلالة الكلمة على نفسية من وقعت فى شأنهم.

فالتعبير بالخوف له دلالة على بيان المراد لا يجليها غيره، وكذا التعبير بالخشية يجلى دواخل القلوب ويكاد يفصح عنها.

ولكل كلمة فى مقامها معنى لا يأتنس السياق إلا به، ولا يتم المراد بغيره.

والخشية: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما تكون عن علم بما يخشى منه وهى الحاملة على التقوى.

والخوف حالة نفسانية مخصوصة سبب حصولها توقع حصول مكروه فى المستقبل، وهذا ما قصدت الدراسة إلى تحقيقه.

والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير.

أهم المصادر

(١) أساس البلاغة للزمخشرى.

(٢) أسباب النزول للواحدى.

(٣) البحر المحيط لأبى حيان.

(٤) البرهان للزركشى.

(٥) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة.

(٦) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

(٧) تفسير الفخر للرازى.

(٨) روح المعانى للآلوسى.

(٩) العين للخليل.

(١٠) الفتوحات الإلهية لسليمان بن محمد العجيلى.

(١١) الفروق فى اللغة لأبى هلال العسكرى.

(١٢) الكشاف للزمخشرى.

(١٣) لسان العرب لابن منظور.

(١٤) مجاز القرآن لأبى عبيدة.

(١٥) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقى.

(١٦) المفردات للراغب الأصفهانى.

(١٧) مقاييس اللغة لابن فارس.

(١٨) النبأ العظيم د. محمد عبد الله دراز.

(١٩) نظم الدرر للبقاعى.

(٢٠) النظم الفنى للقرآن للأستاذ/ عبد المتعال الصعيدى.

(٢١) النهر الماد من البحر المحيط لأبى حيان.